

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ميخائيل نعيمة
النور والدَّيجور
نوفل
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

نوفل


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الطبعة التاسعة
صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-019-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-452-7

النور والدَّيجور

المفردات في اللغة كالمعادن والحجارة في الأرض: منها الكريم وهو النادر. ومنها شبه الكريم وهو أقلّ ندرة. ومنها الخسيس وهو الكثير الكثير. والنادر هو المعرَّض أبدًا للتزييف. فأنتم قلّما تسمعون بالحديد أو القصدير أو النحاس المزيّف. وتسمعون بالفضّة المزيّفة، وبالذهب والبلاتين المزيّفَين. ولا تسمعون بالحجارة الرمليّة أو الكلسيّة المزيّفة ولا بالزجاج المزيّف، وتسمعون باليَشْب والياقوت والألماس المزيّف. كذلك لا تسمعون بالحقارة والوضاعة والرجاسة والخساسة والدعارة والشقاوة المزيّفة، وتسمعون بالجلالة والرفعة والقداسة والفخامة والعصمة والسعادة المزيّفة.

لقد تفشّى التزييف والتقليد والتزوير والتمويه في القِيَم الروحيّة العالية تفشّيًا لا يبشّر الإنسانيّة بغدٍ أغرّ قشيب، وينذرها بيوم عبوس عصيب. ولو أنّ ما يشبه ذلك تفشّى في أسواقها الماليّة لقامت قيامتها وراحت تبثّ العيون في كلّ جانب لتهتدي إلى المزوّرين والمزيّفين والمقلّدين والمموّهين فتقتصّ منهم قصاص المتآمرين على كيانها، المارقين من نظامها، العابثين بأقداسها. فحرصها على سلامة فلسها من التزييف أشدّ بكثير من حرصها على سلامة ذوقها من العفن، وقلبها من الغِشّ، وفكرها من الضلال. فهي قاسية إلى أقصى حدّ على الذين يزيّنون لها الرصاص فضّة، والنحاس ذهبًا، والزجاج ألماسًا؛ ورفيقةٌ كلّ الرفق بالذين يزيّنون لها الرياء إخلاصًا، والمذلّة كرامة، والعبوديّة حرّية، والاستغلال استقلالًا، والديجور نورًا. بل هي تطيع هؤلاء طاعة تكاد تكون عمياء، وتنقاد لهم انقياد البعير لحاديه، والحَمَل لراعيه. وفي ذلك من العجب ما فيه.

من قديم قال المثل: «مَن مدحك بما ليس فيك فقد ذمّك». ولعلّ أكبر مذمّة نوجّهها إلى عصر نحن فيه هي نعتنا إيّاه بـ«عصر النور». فما أكثر الألسنة والأقلام التي تنزلق عنها كلمة «النور» بسهولة متناهية كلّما حدّثت عن هذا العصر. حتّى كأنّ النور نَقد متداول في أسواق الناس، أو وسام يسكّه من يشاء ساعة يشاء ويعلّقه حيث شاء. وعندي أنّ مَن استخفّ بالنور إلى حدّ أن يجعله صِفةً

لعصر كهذا العصر إنّما يستخفّ بالناس وينقدهم نقدًا زائفًا. فهو عدوّ نفسه، وعدوّ الناس، وعدوّ النور.

وما هو النور الذي نعنيه عندما نقول إنّنا اليوم في النور وأمس كنّا في الظلام؟

من الأكيد أنّنا لا نعني نور الشمس. فالشمس كانت قبل أن نكون. وما من جيل مضى أو عصرٍ انقضى إلّا رافق الشمس ورافقته الشمس. فما نجا جيل ولا انعتق عصر من العثرات والنكبات والويلات والأوجاع والظلمات التي ما برحت تكتنف الحياة والموت. ألعلّ القائلين بأنّ عصرنا عصر النور يعتقدون، ويريدوننا أن نعتقد، أنّه أصبح في مستطاعنا اليوم، بفضل ما نحن فيه من نور، أن نأمن العثار، ونتحاشى الويلات والنكبات، ونتغلّب على الأوجاع والظلمات؟ إنّهم لقومٌ سذّجٌ وإنّهم لواهمون.

إذن أيّ نور هو الذي يمتاز به عصرنا عن سالف العصور؟ وهل هو نور أصيل أم مزيّف؟

إنّ ما يعنيه أولئك السذّج بالنور ليس أكثر من بصيص الحباحب في الديجور. فقد طاب لهم أن يقسّموا تاريخ البشريّة إلى أدوار أو عصور، وأن يُلصقوا بكلّ عصر رقعة ويخطّوا على كلّ رقعة كلمة تكون بمثابة صفة لذلك العصر تميّزه عن غيره من العصور. وقد رأوا أن العصر السابق لعصرنا – وهو الأجيال الوسطى – كان عصرًا صَرَف جلّ همّه إلى الشعوذات العلميّة والمماحكات الدينيّة. فنكّل أفظع التنكيل بمن سوّلت له نفسه الخروج على قشور العلم المألوف وعلى الترّهات التي لا تنتسب إلى الدين إلّا كما ينتسب التراب إلى التبر والحسك إلى الحَبّ. وضَرَب حول الفكر والخيال نطاقًا من حديد. فما يجرؤ أحد أن يخترق ذلك النطاق. حتّى إذا قام مَن يقول بأنّ الأرض مستديرة لا مسطّحة، وأنّها تدور حول الشمس بدلًا من أن تدور حولها الشمس، اتّهموه بالكفر وما تورّعوا عن اضطهاده وتسفيهه وتعذيبه أشنع التعذيب. ولذلك دعوا الأجيال الوسطى «أجيال الظلمات».

ثمّ كان ما يدعونه عصر الانبعاث – وهو بدء العصر الذي نحن فيه – فانطلق الفكر من سجنه والخيال من عقاله. فكانت طفرة في الفنّ وفي الأدب، وكان تفتيش محموم عن بعض ما أُغلق على الناس من أسرار الطبيعة. وإذا البخار يسيّر القُطُر الحديديّة في البرّ، والسفن الكبيرة في البحر؛ وإذا البرق في خدمة الناس يحمل رسائلهم، وينير مساكنهم، ويدير دواليب معاملهم، ثمّ ينتهي بأن يحمل أصواتهم عبر الجبال والسهول والبحار حتّى تُمنطق الأرض. وإذا الأرض تنفرج أحشاؤها عن غازات غريبة وعن سائل أسود عجيب، والجوّ يخفض جانبه للإنسان فيجوبه بأجنحة محمولة بقوّة ذلك السائل العجيب. وإذا الإنسان ذو عين تنفذ إلى دقائق الحياة في قطرة من الماء وفي قبضة من الهواء، وأخرى تستشفّ أبعاد الجَلَد، وأجساد الكواكب، فتقيس أحجامها وتقدّر موادّها وأوزانها.

وتبلغ هذه الطفرة من الحدّة والاندفاع والثقة بالنفس حدًّا يخيّل إلى الناس عنده أنّهم يوشكون أن يدركوا السرّ الأعظم والأعمق – سرّ المادّة في الذرّة وسرّ الحياة في المادّة. فتأخذهم نشوة عظيمة لا تلبث أن تنقلب إلى قشعريرة مريرة إذ يسمعون دويًّا هائلًا ينشر الموت والبؤس والظلام بدلًا من الحياة والهناء والسناء. فيقول السذّج:

«حقًّا إنّه لعصر النور...»

وقد رافقت الطفرةَ العلميّة طفرةٌ سياسيّة – إجتماعيّة كان منها أن تدحرجت تيجان كثيرة عن رؤوس كثيرة، وغُلّت – إلى حدّ – أيدي الطغاة والإقطاعيّين، ونودي بحارث الأرض إنسانًا وبالعامل الوضيع مواطنًا حرًّا له من الحقوق ما لغيره من المواطنين وعليه ما عليهم. فقال الواهمون:

«حقًّا إنّه لعصر الحرّيّة والإخاء والمساواة...»

إذا كان عصرنا عصر النور وعصر الحرّيّة والإخاء والمساواة فالعصر الذي يليه سيكون، من غير شك، عصر التألّق، بل عصر التألّه. وها نحن على عتبة ذلك العصر. فهل مَن يشعر بأنّ الإنسان يوشك أن يتألّه؟ إنّ الكثير من الناس يشعر عكس ذلك بالتمام. فالإنسان في نظر هؤلاء يتقهقر سراعًا إلى الحيوان ويوشك أن يُمسخ قردًا.

ما دمنا بعيدين كلّ البعد عن التألّق والتألّه فنحن بعيدون عن النور، وعن الحرّيّة التي لا تعيش إلّا بالنور وفي النور، وعن الإخاء الذي لا ينبت إلّا في حمى الحرّيّة، وعن المساواة التي لا تقوم بغير الإخاء. ونحن كلّما تلفّظنا باسم النور والحرّيّة والإخاء والمساواة كما لو كانت أمورًا عجنّاها وخبزناها وتذوّقناها، كان تلفّظنا تجديفًا على النور والحرّيّة والإخاء والمساواة، وكنّا كمن يتداولون فيما بينهم نقودًا زائفة وهم لا يعلمون. أمّا إذا ذكرناها كما يذكر العابد الخاشع معبوده، والعاشق الولهان معشوقه، فذكرها إذ ذاك تبريك لنا وتقديس، ومهماز يحثّنا على التفتيش عنها للحظوة ببهجتها التي لا توصف وكمالها الذي يفوق حدّ التصوّر.

إنّ ما توهّمه البعض نورًا في محاجر هذا العصر ما كان، كما أسلفت، أكثر من وُميضات الحباحب في الليالي الدامسات. ولكنّ هذه الوميضات كانت أشدّ بريقًا من أخواتها في العصور الخوالي. وهي جميعها ناتجة عن احتكاك العقل البشريّ بالمجهول. وذلك الاحتكاك كان بطيئًا في ما مضى لأنّه كان موزّعًا بين شعوب تباعدت تخومها، وتفاوتت مواهبها، وشقّت المواصلات وعزّ التعاون بينها. فلا يعرف واحدها ما يعمله وما يفكّر به إلّا القريب القريب من جيرانه.

أمّا في القرن الغابر فقد راح البخار يشقّ طرقًا جديدة. ثمّ جاء هذا القرن بالكهرباء وبالراديو وبالطيّارة. فتصرّمت الأبعاد، وتقلّصت التخوم، ودانت الحواجز اللغويّة والإقليميّة. وهذه كلّها سهّلت التقارب بين عقول الشعوب فكان تبادل، وكان تعاون، وكان احتكاك مضاعف بالمجهول.

وهذا الاحتكاك كان مدرّبًا ومنظّمًا أحسن التدريب والتنظيم. ولولا ذلك التقارب والتعاون، ولولا ذلك التدريب والتنظيم لما كان لنا العلم الحديث الذي نعتزّ به ونغالي في تقديره وتمجيده.

نعم. لقد شدنا للعلم صرحًا شاهقًا. شدناه على أسس طمرتها معاول الزمان فما يعرف إلّا الله أيّ الأمم كان لها الفضل الأوّل والأكبر في وضع تلك الأسس. ولكن هذا الصرح الشاهق ما يزال بغير سقف. والأيدي ما تزال تعمل فيه ليل نهار بين هدم وبناء، وما مِن منجّم يدري أيّها الأقدر والأهمّ اليوم، أو أيّها سيكون الأقدر والأهمّ في الغد. فما أجهلنا نميّز بين الأمم من هذا القبيل فنقول إنّ هذه الأمّة قدّمت للعلم أكثر من تلك أو أقلّ، وإنّ للغرب فضلًا على العلم لا يدانيه فضل الشرق. لذلك كان على الشرق أن يُقرّ بمنّة الغرب عليه وأن يدفع ثمنها استعبادًا وامتهانًا واستغلالًا.

لئن حقّ لنا أن نباهي بصرح شدناه للعلم فلا يحقّ لنا أن ندعوه ملجأ أو منارة. فهو، كما قلت، ما يزال بغير سقف. وبصيص النور الذي نلمحه فيه ما يزال أضعف من أن يخترق الدياجير من حوله. فهي من فوقه ومن تحته وعن جانبيه حالكةٌ، كثيفة، ساحقة.

نحن في دياجير من عالمنا الأرضيّ. فكيف بالعالم السماويّ؟ ونحن من العالم الأرضيّ والسماويّ في دياجير لأنّ الإنسان ما يزال من نفسه في ديجور. فكيف للديجور أن ينير الدياجير؟ كيف لمن لا يعرف مَن هو أن يعرف ما هو العالم من حوله؟ ولمن يجهل غايته من الوجود أن يدرك غاية الوجود؟

ألا ترون معي أنّ على الإنسان، قبل أن ينظر إلى نفسه وإلى الكائنات من حوله، أن يجلو بصره كيما يكون ما يبصره جليًّا؟ فالعين الرمداء تدور في عالم أرمد. والكفيفة في عالم كفيف. والعين التي عليها زجاجة ملوّنة تبصر عالمًا لونه لون الزجاجة التي عليها. أمّا العين النيّرة الصافية فلا تبصر غير عالم يغمره النور والصفاء.

لكنّما العين آلة لا أكثر ولا أقلّ. فنحن إذ نتكلّم عن العين إنّما نعني الفكر الذي ينظر من خلال العين، ونعني القلب الذي من وراء الفكر. إذن لا بدّ لنا قبل أن نجلو العين من أن نجلو الفكر والقلب.

وكيف لنا أن نجلو الفكر والقلب، وبماذا نجلوهما؟

يسلك الحيوان سبيله في الحياة على هدي الغريزة. فهو بالغريزة يأكل ويشرب. وبالغريزة يتناسل ويتكاثر. وبالغريزة يقاوم أمراضه وأعداءه ويهرب من الأوجاع والأخطار. فالغريزة هي النور الذي يستنير به الحيوان.

أمّا الإنسان فله فوق نور الغريزة نور الفكر والخيال والوجدان. وهو حديث العهد بذلك النور فما أتقن استعماله بعد، ولا أتقن السير على هديه. لذلك يستسهل السير على هدي الغريزة إذ لا يلاقي فيه من المشقّة ما يلاقيه في السير على هدي الفكر والوجدان. ولكن فكره ما استيقظ ليعود

فينام. وكذلك وجدانه وخياله. وهذه الثلاثة تعمل بغير انقطاع، منفردةً ومتّحدة، على تحرير الإنسان من ربقة الغرائز الحيوانيّة والسموّ به إلى حيث يصبح حريًّا بالميراث المعدّ له منذ الأزل – ألا وهو الألوهة. أما قيل – وما أصدق ما قيل – إنّ الإنسان صورة الله ومثاله؟

ما ارتفع الإنسان فوق الحيوان ليبقى بعضه حيوانًا وبعضه إنسانًا، بل ليرقى إلى ما فوق الحيوان والإنسان. وما أوجاعه المميتة، وشكوكه النهّاشة، وأشواقه اللّافحة؛ وما قلقه الممضّ، وحيرته الخنّاقة، وأحلامه المجنّحة إلّا لأنّ البهيمة فيه تشدّه إلى أسفل والإله فيه يشدّه إلى أعلى. فهو منقسم على ذاته، وعالمه عالمان لا واحد.

وأيّ دليل للإنسان على أنّه مدعوّ لأن يكون أكثر من حيوان وأكثر من إنسان؟

أما سمعتم ما قيل: «الإنسان قلبه دليله»؟ لعمري إنّ في ذلك القول لمنتهَى الصدق والحكمة. فمثلما سلّحت الحياة الحيوان بالغريزة يستدلّ بها على مأكله ومشربه ومأواه وأبناء جنسه، سلّحت القلب البشريّ بأشواق يستدلّ بها على أهدافه. ثمّ سلّحته بالفكر والخيال يستعين بهما في الوصول إلى تلك الأهداف. ولا عبرة بما في ذلك القلب من شهوات خسيسة أو نصف خسيسة. فهذه كلّها من بنات الغريزة الحيوانيّة. والعبرة كلّ العبرة بما في القلب من أشواق بعيدة لا تنتمي إلى الغريزة أو البهيمة بصلة قريبة أو بعيدة. مثال ذلك الشوق إلى الانعتاق من كلّ قيد، ومعناه الحرّيّة المطلقة. والشوق إلى معرفة كلّ شيء، ومعناه النور لا يفوقه نور ولا يحدّ من سنائه ديجور. والشوق إلى التغلّب على الموت والألم، ومعناه الوجود السرمديّ. ثمّ الشوق إلى الخلق والإبداع بغير حدّ، ومعناه القدرة على كلّ شيء.

إنّ هذه الأشواق تنبض بها قلوب الناس من حين إلى حين – وقلوب الأنبياء والرسل والأولياء في كلّ حين – لهي الدليل القاطع للإنسان على أنّ هدفه من وجوده هو أبعد بما لا يقاس من الأكل والشرب والتناسل، واقتناء الأرزاق، وتكديس الأموال، وتحصيل العلوم والفنون، وتقتيل الأعداء والخصوم، وتشييد الحضارات والأوطان، ثمّ الانتهاء من هذه كلّها إلى القبر الذي لا نهوض منه إلّا لتصفية الحساب تصفيةً نتيجتها إمّا جحيم ناره لا تخمد، وإمّا نعيمٌ جماله لا يذوي.

قد يقول البعض إنّ هذه الأشواق التي تكلّمنا عنها ليست سوى سراب يتسلّى به القلب عن غمومه وهمومه، ويتلهّى به الفكر والخيال العاجزان عن اختراق الحواجز التي أقامتها الحياة في وجهيهما. وجوابي أنّ الحياة ما كانت يومًا من الأيّام قاسية إلى حدّ أن تعبث مثل ذلك العبث بأبنائها. فهي ما أغرَتْنا بغاية من الغايات إلّا وهبتنا المقدرة على بلوغ تلك الغاية. فما جعلت حشرة بعينها تجوع إلى غذاء بعينه إلّا أوجدت لها ذلك الغذاء، ومع الغذاء المقدرة على الوصول إليه والتمتّع به. وهي ما خلقت قفلًا إلّا خلقت له مفتاحًا. ولا أثارت فينا الشوق إلى أمر من الأمور إلّا لأنّها سلّحتنا بالفكر والخيال لتمكّننا من بلوغ ما نشتاقه.

ونحن ما نسينا أمسًا قريبًا جدًّا كنّا نشتاق فيه أن نجاري الطير في الهواء والأسماك في الماء، وأن يتكلّم واحدنا في المشرق فيسمعه الآخر في المغرب. وها نحن اليوم لنا الجوّ بساط واللجّة مسرح، ولنا الأثير قرطاس والبرق قلم. ولنا فوق ذلك القدرة على دكّ الجبال. كلّ ذلك ونحن ما نزال عبيد البهيمة فينا إلى حدّ بعيد. فكيف بنا يوم نتحرّر من البهيمة ونملك كلّ ما فينا من قوى الفكر والخيال؟

من طبيعة ما يصدر عن مصدر ما، أن يحنّ أبدًا إلى مصدره. فالولد يحنّ إلى والديه، والغريب إلى أوطانه، وقطرة الطلّ إلى البحر، وشعاع الشمس إلى الشمس. كذلك يحنّ التراب فينا إلى التراب، والنور إلى النور. وشوقنا إلى المعرفة الكاملة والحرّيّة القصوى والقدرة المطلقة والبقاء الدائم، هو النور فينا يحنّ إلى النور ويهدينا السبيل السويّ إليه. وهذا النور يأتلق ويخبو على قدر ما نُقبل عليه أو ندبر عنه، أو على قدر ما نفتح له منافذ في أنفسنا أو نسدّ عليه المنافذ. أمّا ما عداه من شهوات القلب فأكثره من الدياجير التي تحجب عنّا النور ولكنّها لا تستطيع أن تطفئه.

يسألني البعض: وهل في مُكنة الإنسان، وهو من الضعف والقلق وتشتّت الفكر والوجدان حيث هو، أن يحقّق أشواقه في غضون عمر واحد؟

ههنا الفخّ والمزلقة. فالناس ما تمكّنوا بعد من أن يتخطّوا بتفكيرهم حدود العمر. والذين تخطّوها إلى ما وراء القبر ما بلغوا بالإنسان مقرًّا غير جهنّم النار وغير جنّة الفردوس. ولا فسحوا له من الزمان أكثر من سنوات معدودات يترتّب عليه فيها أن يعرف نفسه، وأن يعرف الله، وأن يصفو من كلّ أكداره ويقهر كلّ غرائز البهيمة فيه. كأنّ الصفو من الأكدار، وقهر الغريزة، وكأنّ معرفة النفس ومعرفة الله، أمور يسيرة لا يعوزنا لبلوغها إلّا أن نفكّر فيها وأن نشتهيها. ومن ثمّ فبيننا الأبكم والأعرج والمقعد والأعمى والأبله والمجنون. فكيف نساوي بين الذين عاشوا المائة والذين ما عاشوا أكثر من العشرين؟ وبين الذين مقدرتهم على الاستمتاع بجمال الجنّة تفوق مقدرة سواهم مثلما تفوق مقدرةُ البعض مقدرةَ الآخرين على تذوّق جمالات الطبيعة والفنون؟ وكيف نوفّق بين عدل الله ورحمته وحنانه وبين نارٍ أبديّة السعير يشوى بها الخطاة فلا هم يترمّدون، ولا هم من خطاياهم يتطهّرون؟

ألعلّ الله، والآزال والآباد في قبضته، شحيح وقاسٍ إلى حدّ أن يبخل علينا بفسحة من الزمان تكفينا لمعرفة أنفسنا ومعرفته؟ ألسنا من الله وفيه؟ فعلامَ لا يمتدّ عمرنا ما امتدّ الزمان؟ وعلامَ نقف عند الولادة كما لو كانت البداية وعند الموت كما لو كان النهاية، ولا بدايات في الزمان ولا نهايات؟ أمّا ما نراه من تقلّب وتبدّل في المحسوسات فليس أكثر من تحوّل في طبقات الدياجير التي تكتنف النور فينا. لكنّما النور باقٍ. وهو لا يتحوّل ولا يتبدّل. فلا الولادة تشعله ولا الموت يطفئه. وما الموت إلّا انتقال النور من مصباح إلى مصباح – من إناء إلى إناء – من حال إلى حال. ونحن

ما أوتينا من حدّة البصر ما يمكّننا من رؤية أجسام كثيرة نشربها في الماء الذي نشرب ونتنشّقها في الهواء الذي نتنشّق. فأيّ عجب إذ ذاك أن لا نبصر المصابيح أو الآنية التي ينتقل إليها النور بعد الموت، وقد تكون من موادّ ليست من الكثافة والخشونة بحيث نتمكّن من الاتصال بها مباشرة بحواسّنا الكثيفة الخشنة؟

لست أريد أن أتبسّط في الحديث عن الحياة بعد الموت. فما همّني كيف يعيش الأموات ولا أين يعيشون. وجلّ ما أريد أن ألقيه في خلدكم هو أنّ الموت ليس بالعقبة الكأداء التي نتوهّم. وأنّه لا يقف في سبيل الإنسان إلى أهدافه السامية. بل قد يكون من خير المساعدين على الوصول إليها. فنحن ما انبثقنا من الله لنتلاشى في الموت. ولا نحن نموت ما دمنا من الله وفيه. ولكنّنا نحيا لنعرف أنفسنا ونعرف الله. وإذا كانت المعرفة الكاملة لعلمٍ من علوم الناس لا تتمّ لنا في عمرٍ واحد فكيف بمعرفة الله تتمّ لكائن كالإنسان في خلال عمر أو أعمار وهو ما برح في أوّل الطريق تحثّه على السير أشواقه إلى الحقّ والحريّة والكمال، ولكنّ غرائز البهيمة فيه تثقل خطاه بما تنشره في وجدانه من شهوات سود وتزيّنه لفكره من قِيَمٍ زائفة. وهذه كلّها دياجير في دياجير. وعلى الإنسان أن يمزّقها بالنور الذي فيه حتّى وإن هو اضطّر في تمزيقها إلى تمزيق جلده ولحمه. وذلك يعني أنّه على الإنسان أن يشنّ حربًا على نفسه لا على أخيه الإنسان ولا على الأكوان من حوله. فهو إن صفت عينه صفت حياته. وإن صفت حياته كان كلّ الكون في عينيه نورًا صافيًا.

إنّها لحرب ضروس شعواء تلك التي يترتّب على الإنسان أن يشنّها على نفسه. وإنّها لحرب مقدّسة. وهي من بين كلّ أنواع الحروب الحرب الوحيدة التي يليق بالإنسان أن يخوض غمارها. وكلّ ما عداها فظاعة وخزي ورجاسة ودياجير حالكة تعمي الإنسان عن هدفه وتحرّفه عن الصراط السويّ إليه. وما حرب الإنسان مع نفسه غير حرب الفكر والوجدان والخيال مع غرائز البهيمة في الإنسان. فالغريزة في الحيوان العاجز عن التفكير والتخيّل والنطق والشعور بالواجب هي القوّة التي تقوده في مسالك الحياة عن غير وعي منه. فلا فضل له ولا ملامة عليه في كلّ ما يصدر عنه من أعمال. في حين أنّ الفكر والنطق والخيال والوجدان يرافقها الوعي والشعور بالذات وبالمسؤوليّة والواجب تجاهها وتجاه الغير. ومن كان له مثل ذلك الوعي والشعور كانت له الإرادة. ومن كانت له الإرادة كان مطالَبًا بإنفاق جهد أو جهود في تسيير حياته – ولو إلى حدّ – فلا يكون عالّة على سواه. وذلك يعني أنّ الحياة ما سلّحت الإنسان بالسلاح الجديد وهو الفكر والخيال والنطق والوجدان إلّا ليستغني به عن السلاح القديم وهو الغريزة، وإلّا ليتقن استعماله. ولأنّه لا يزال حديث العهد بذلك السلاح فالحياة تدرّبه في كلّ لحظة من وجوده على استعماله. فآنًا يصيب فيزهو بنفسه. وآونة يخطئ فتسيل دماؤه ودموعه، ويركبه البؤس والألم. ولكنّ الحياة لا

تبكي لبكائه ولا تتألّم لألمه لأنّها تعرف حقّ المعرفة أنّه سينتهي بأن يتقن استعمال السلاح الجديد لخيره وخير الكون.

خذوا لكم مثالًا على ذلك من حياة الطفل وأمّه. فالأمّ تقوم بكلّ حاجات الطفل ما دام قاصرًا عن النطق والتمييز والمشي. ولكنّه حالما يبدأ يمشي تمضي تساعده إلى أن يملك قواه فيمشي وحده. وإن هو وقع مرّات وبكى بكاءً مرًّا فالأمّ لا تتفجّع لبكائه بل تبسم له وتلاطفه بقولها: «لا بأس يا بنيّ. طار الحمام. حطّ الحمام». ومتى ملك الطفل قواه لا تعود أمّه تحمله على ذراعيها، بل تطالبه بأن يمشي على رجليه لا على رجليها. وكذلك عندما يبدأ الطفل بالنطق. فالوالدان والجيران يضحكون لكلّ كلمة ينطق بها ويشوّهها. ولكنّه متى بلغ المقدرة التامّة على النّطق فلا الوالدان ولا الجيران يضحكون له إذا هو لفظ السين ثاءً، والراء لامًا، والكاف تاءً الخ. بل ينتهرونه ويؤنّبونه. وكذلك عندما يبدأ يميّز بين القذارة والنظافة. فهو إذ ذاك يُضْرَب ضربًا أليمًا كلّما سها عن باله أنّ قاعة الاستقبال غير بيت الخلاء.

ومن ثمّ فالطفل ذاته يعتزّ بنموّ القوى التي كانت هاجعة فيه والتي في حالة هجوعها جعلت منه عالّة على والدته مثلما تجعل الغريزة من الحيوان عالّة على الحياة. وما إن تتنبّه تلك القوى وتأخذ في النموّ حتّى يعلن الولد حربًا على الإتّكاليّة التي كان فيها. وما إن يبلغ سنّ الرشد حتّى يستقلّ عن والديه بحركاته وتفكيره ومشاعره ويصبح مساعدًا لهما لا عالّة عليهما.

لكنّ سنّ الرشد للطفل المزمع أن يصبح رجلًا أو امرأة هي غير سنّ الرشد للإنسان العتيد أن يتألّه. تلك يدركها الناس في عقدين من السنين. وهذه لا يدركونها في عقود العقود من الأجيال والقرون. لذلك كانت حرب الإنسان ضدّ القيود التي تفرضها عليه غرائزه أطول وأقسى بما لا يقاس من حربه ضدّ القيود التي تفرضها عليه طفولته.

قلت إنّ الإنسان لم يتقن بعد استعمال سلاحه الجديد. فما أكثر ما يؤذي به نفسه ويؤذي الآخرين. كالطفل يقبض على النار فيبكي. ويكوي بها غيره فيضحك. فما أشبه حياته من هذا القبيل بلعبة كان يلعبها الأولاد في عهد صباي إذ يعصبون عينَيْ واحدٍ منهم فيمضي يضرب بيديه ذات اليمين وذات اليسار وهو يردّد: «أنا أعمى ما بشوف». فلا يندر أن يصيب أخًا له أو صديقًا بضربة جنونيّة، مثلما لا يندر أن يضرب الحائط أو الكرسيّ فيصرخ من شدّة الألم.

ونحن ما تعلّمنا بعد كيف نستعمل الفكر والخيال والوجدان لنخلص بها ونخلّص سوانا من دياجير الغريزة إلى نور المعرفة والقدرة والحرّيّة. ولو أنّنا تعلّمنا لما وجّهنا سلاحنا يومًا من الأيّام ضدّ إنسانٍ من الناس أو ضدّ أيّ كائن سواه من الكائنات، بل ضدّ ما فينا من غرائز تدفعنا على مخاصمة الناس والكائنات. إلّا أنّنا لا نبرح من علمنا في البداية. لذلك نقاتل الناس ونخاصم الطبيعة فَنَشقى ونُشقي ولا نُريح ولا نستريح.

من أدرك قيمة النور في روحه أدركها في كلّ إنسان فكان عونًا لأخيه في حربه مع نفسه لا عونًا عليه كيما يكون أخوه عونًا له في حربه مع نفسه لا عونًا عليه. فشمعتان تضيئان معًا لأقوى على تبديد الظلام من شمعة واحدة.

ما أجهل من يفقأ عين أخيه ولا يعرف أنّه بذلك يُضعف النور في عينه. فكلّ عين بشريّة، أينما كانت، هي نور يضاف إلى النور في عيونكم.

ما أجهل من يكسر يدًا بشريّة أو رجلًا بشريّة. فرِجل كلّ إنسان ويده هما قوّتان تضافان إلى قوّة أرجلكم وأيديكم.

ما أجهل من يأكل خبز أخيه ليشبع ويجوع أخوه. فكلّ جائع في الأرض هو شاهد اتّهامٍ على الشباع والمتخمين أمام محكمة الحياة والنور، وحجر رحىً في أعناقهم.

ما أجهل من يُطلق لسانه على هواه ويعقِل لسان أخيه. فلسانٌ معقولٌ عن النطق بما في الفكر والضمير والخيال لجمرة حرّاقة تحت ألسنة الطغاة والثرثارين.

ما أجهل من يسلب إنسانًا حياته. فكلّ إنسان، أينما كان، جنديّ مساعد في الحرب التي يشنّها النور فيكم على الديجور.

إنّ حرب الإنسان مع نفسه على طريقة «أنا أعمى ما بشوف» لجهنّم وأيّ جهنّم. فالمحارب في الظلام كثيرًا ما يفتك بأصدقائه قبل أعدائه ثمّ ينتهي بأن يفتك بنفسه. فلا بدّ له من نورٍ يميّز فيه صديقه من عدوّه ثمّ يحدّد جبهة القتال. لكنّ سواد الناس، ويا للأسف، ما يزال نورهم ضئيلًا إلى حدّ أنّهم يحالفون أعداءهم على أنفسهم وعلى أصدقائهم. فتدور رحى المعركة عليهم ويروحون يئنّون ويشكون ويعاتبون.

هكذا يحالف الناس الطمع في حربهم مع الطمع، والظلم في حربهم مع الظلم، والعبوديّة في حربهم مع العبوديّة. وهكذا يحاربون الغشّ بالغشّ، والحسد بالحسد، والبغض بالبغض، والاستبداد بالاستبداد. إنّهم يحالفون الدياجير على النور ثمّ يعجبون للنور كيف لا ينبجس من قلوبهم وأفكارهم وكيف لا يبدّل شقاءهم هناءً، وليلهم نهارًا، وموتهم حياة. وإنّهم يحالفون الغرائز الحيوانيّة على الفكر والخيال والوجدان ثمّ يعجبون كيف تتغلّب البهيمة فيهم على الإنسان.

ها هو العالم – عالمنا – تغلي مرائره اليوم غليانًا ينذر بانفجار هائل، جارف. وإن سأل سائل عن أسباب ذلك الغليان قيل له: إنّه غليان مراجل الحرّيّة ضدّ طغيان الاستبداد، والنّظام ضدّ الفوضى، والسّلم ضدّ الحرب، والنور ضدّ الديجور. يقولون ذلك دون أن يرفّ لهم جفن، أو تحمرّ لهم وجنة، أو يندى لهم جبين.

يا ويلهم من الحرّيّة والنظام والسلم والنور يزيّفون معادنها الصافية، ويزوّرون معانيها البديعة، ويموّهون جمالها وجلالها ثمّ يسدلونها سُجُفًا كثيفة على أبصار البسطاء والمغفّلين فيتقبّلها هؤلاء

بالشكر والرضى، ويمشون جحافل جرّارة إلى ميادين القتال جاهلين أنّهم يمشون إلى قتال الفكر والخيال والوجدان، وإلى نصرة الاستبداد والفوضى والحرب والظلام على الحرّيّة والنظام والسلم والنور، وأنّهم يمشون في عرس البهيمة وفي جنازة الإنسان.

يا ويلهم يسمعون صراخ القلوب الغرثي إلى العدل والإخاء والمساواة فلا يجدون ما يلقمونها إيّاه غير ديموقراطيّة ودكتاتوريّة وشيوعيّة ورأسماليّة، وغير وطنيّات وقوميّات، وبيارق وكرامات وما إليها من الترّهات والمخرقات.

يا ويلهم يطرحون صورة الله ومثاله في سوق الدلالة ليقبضوا ثمنها ذهبًا أصفر وأسود، وسلطانًا زائفًا، ومجدًا باطلًا، ودماءً قانيةً، وأشلاءً ممزّقةً، وحرقةً ودموعًا، وقلقًا وأوجاعًا ما لها قرار.

يا ويلهم يجعلون من السماء أتّونًا، ومن الفضاء سجنًا، ومن الأرض مسلخًا.

يا ويلهم يجنّحون ما اسودّ من شهوات القلب، أمّا أشواقه البيض فينتفون قوادمها وخوافيها وهم يهزجون ويرقصون ويعربدون.

يا ويلهم ويا ويل العالم منهم. فهم يوهمون الناس أنّ ما في قلوبهم من دياجير لا تنجلي إلّا بإطفاء النور في قلوب غيرهم، وأنّ ما بهم من جوع لا يشبع إلّا بانتشال اللقمة من أفواه إخوانهم، وأنّ ما يلازمهم من قلق وشقاء مردّه إلى الغرائز الحيوانيّة في جيرانهم لا فيهم، وأنّ البهيمة في جارهم لا تروّض إلّا بالسيف والمدفع، وأنّ الإنسان لا يتألّه إلّا إذا أبغض كثيرًا وداجى كثيرًا وادّخر من فضلات الدنيا فوق ما يحتاجه للدنيا والآخرة.

ولكنّ الإنسان لن يعود القهقرى إلى البهيمة مهما زيّف المزيّفون ومهما زوّر المزوّرون وموّه المموّهون. والنور يعمل عمله في الظلام مهما أحلولك الظلام. والفكر والخيال والوجدان لا بدّ من أن تنتصر في النهاية على غرائز الحيوان. وإنّه لمن العار علينا – نحن الذين نتظلّل بسماء هذا الشرق، ونغتذي من ترابه، ونشرب ماءه، ونتنشّق هواءه – أن ننقاد للمزيّفين والمزوّرين والمموّهين، وأن يُعمينا بريق سلاحهم عن مضاء سلاحنا وإن يكن صدِئًا. فسلاحهم سيف في يد البهيمة ضدّ الإنسان. وسلاحنا سيف في يد الإنسان ضدّ البهيمة. سلاحهم الديجور وسلاحنا النور.

لقد كان هذا الشرق أوّل من انتصر للإنسان، وأوّل من اعترف بنبعته الإلهيّة وغايته السماويّة، وأوّل من دعاه إلى الحرب مع غرائزه الحيوانيّة. فعلّمه أن يحبّ حتّى الذين يبغضونه، وأن يغفر الإساءة للمسيء، وأن يرأف بالضعيف والمسكين، وأن يشرك جاره في خيره وماله، وأن يكبح جماح نفسه فلا يغضب ولا يثور ولا يستسلم لشهواته، وأن ينظر إلى أبعد من يومه وأبعد من دنياه، وأن لا يكبر على إنسان ولا يذلّ لإنسان، وأن يدعو الله أباه والناس إخوته، وأن لا يرهن حياته للأرض لأنّه مدعوّ لأن يسكن السماء. وهذه كلّها صفات أو طباع لا تتوافق في شيء مع غرائز البهيمة بل من شأنها أن تنقضها نقضًا.

هكذا علّمنا أنبياؤنا، وبمثل ذلك بشّرونا. علّمونا كيف نحارب غرائز البهيمة فينا لكي نخلص من دياجيرها إلى نور المحبّة الصافية. وبشّروا الظافرين، بجنان الحرّيّة والمعرفة والقدرة. وكان علمهم حقًّا، وهديهم نورًا، وبشارتهم حياة. فهل يليق بنا، وترابهم الطاهر بعض من ترابنا، وأصواتهم العذبة ملء جوّنا وآذاننا، أن نُعرض عنهم بوجوهنا وقلوبنا وأن نسير على حداءٍ غير حدائهم وهديٍ غير هديهم فنسلّم مقاليدنا إلى قومٍ عيونهم مقنّعة بالبغض، وقلوبهم مشحونة بالمطامع، وأيديهم مصبوغة بالدماء، فنحالفهم ضدّ حُداتنا وهُداتنا؟

هل يليق بنا أن نُظاهر أنصار الغريزة في الإنسان على أنصار الفكر والخيال والوجدان، فنثور على من يثيرنا، ونؤذي من يؤذينا، ونستأثر جهد مستطاعنا بخيرات الأرض والسماء فنجيع جارنا لنشبع، ونُهزله لنسمن، ونُذلّه لنعتزّ، ونُميته لنحيا؟

إذن لقد نكثنا عهودنا، ونقضنا وعودنا، وانقلبنا على الرسالة العلويّة التي حملناها منذ القدم إلى العالم، وسفّهنا رسلنا وأنبياءنا، واعترفنا أمامهم وأمام أنفسنا وأمام العالم بأنّ البشارة التي بشّروا بها العالم – بشارة انعتاق الإنسان من عبوديته للبهيمة – ما كانت غير تمويه وتخدير. فلا أمل بانتصار العقل على الغريزة، وبغلبة النور على الديجور. وإذ ذاك فنحن جنود مجاهدون في معسكر المتهالكين على الثروة المزيّفة والمجد الباطل والحرّيّة المزوّرة المؤمنين بقوّة الدبّابة والطيّارة وبانتصار الديجور على النور. أمّا في معسكر التوّاقين إلى ثروة المعرفة التي لا تنضب، ومجد الحرّيّة التي لا تأخذ ولا تؤخذ، وسلطان القدرة التي لا يحدّ من شوكتها زمان أو مكان؛ وأمّا في معسكر النور فنحن خونة ونحن مارقون.

لا. لا أصدّق أنّ هذا الشرق سيخون رسالته السامية. ففي عنقه أمانة إن تعامى عنها هذا الجيل وتلكّأ عن تأديتها فلن تتعامى عنها ولن تتلكّأ عن تأديتها الأجيال الآتية. وقد يكون الصوت الذي تسمعونه الآن صوتَ صارخٍ في وادٍ أو نافخٍ في رماد. ولكنّه لن يمضي بغير صدىً، ولن يعدَم في الغد جوقًا من الرفاق. ولولا أنّني شاعر بوجود آذان تسمع لما كنت أنادي. ولولا أنّني على يقين من وجود النار تحت الرماد لما كنت أنفخ في الرماد. ولولا أنّني واثق من غلبة النور على الديجور لما كنت أدعوكم إلى الجهاد في معسكر النور.

تبارك المعسكر، وتبارك الجهاد، وتبارك النور.

عالَم جُنّ جُنونه

هل جاءك نبأ الذين بنوا برجًا وشاءوا أن يدركوا به الله؟

إذا كنت لم تقرأ بعد حكاية برج بابل في التوراة، فلا بأس إذا أنا نقلتها إليك حرفًا حرفًا. فهي على قصرها وبساطتها جديرة باهتمامك لما في بساطتها من سموّ وجمال، وما في قصرها من عمق ومدى. شأنها في ذلك شأن كلّ أقصوصة رمزيّة في ذلك الكتاب المقدّس. وإليك الرواية كما وردت في مطلع الفصل الحادي عشر من سفر التكوين:

«وكانت الأرض كلّها لغة واحدة وكلامًا واحدًا وكان أنّهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: تعالوا نصنع لنا لَبِنًا وننضجه طبخًا. فكان لهم اللّبِن بدل الحجارة، والحُمَر كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجًا رأسه إلى السماء. ونقم لنا اسمًا كي لا نتبدّد على وجه الأرض كلّها. فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الربّ: هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه. والآن لا يكفّون عمّا همّوا به حتّى يصنعوه. هلمّ نهبط ونبلبل هناك لغتهم، حتّى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبدّدهم الربّ من هناك على وجه الأرض كلّها وكفّوا عن بناء المدينة. ولذلك سمّيت بابل».

تلك هي حكاية برج بابل، كما رواها كاتب سفر التكوين. ولعلّه من الخير لك ولي إلّا يفوتنا منها معنى «بابل». فالكلمة في الأشوريّة تعني «باب الله». وإذن فالذين بنوا برج بابل وجعلوا «رأسه إلى السماء» إنّما قصدوا أن يكون برجهم بابًا يؤدّي بهم إلى الله. وباب يؤدّي إلى الله هو باب الحظوة بالمعرفة وبالقدرة وبالديمومة التي ما برح الانسان ينسبها إلى الله. وهي معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء، والديمومة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل ولا ينال الموت منها منالًا.

إنّ هذه الحكاية الساذجة تتبطّن، كما ترى، عن مغازٍ كثيرة أهمّها وأبعدها في نظري هو أنّ الإنسان ما انفكّ منذ أقدم الأزمان يشتاق الوصول إلى الله، ومعرفته معرفة تمكّنه من أن يصير

مماثلًا له في كلّ شيء. فكأنّ ذلك الشوق في لحمه وعظمه ودمه، وفي أنباضه وأنفاسه، وفي كلّ ذرّة من الطين الذي جُبل منه. وإذ ذاك فمن حقّك وحقّي أن نتساءل: من أين للإنسان ذلك الشوق؟ من أين جاءته تلك الرغبة الملحّة في أن يصبح يومًا من الأيّام صورة كاملة ومثالًا كاملًا للقدرة التي بها كان ومنها انبثق؟ أهي رغبة المغلوب على أمره، أم هي رغبة الواثق من نفسه؟ ألعلّها شهوة طائشة وطيف طارئ؟ أم أنّها رغبة أصيلة في طبيعة الإنسان لا يستطيع التملّص منها إلّا بتحقيقها؟ أم تراها الحافز الخفيّ الذي أودعه الله ضمير الإنسان ليدفعه دائمًا أبدًا إلى التفتيش عن مصدره بغية الاتحاد به والاكتمال فيه؟

* * *

تعالَ معي نطوِ العصور القهقرى إلى يوم كان فيه الإنسان الأوّل في الفردوس شبيه الطفل المولود جديدًا – لا فكر، ولا رغبة، ولا إرادة. ثمّ كانت حوّاء. وحوّاء، كما تعلم، كانت لحمًا من لحم آدم وعظمًا من عظمه. وإذا بالإنسان الموحَّد، وقد ازدوج، يفكّر، ويرغب، ويريد. أوَتدري بماذا فكّر أوّل ما فكّر؟ – لقد فكّر بالله. وماذا اشتهى أوّل ما اشتهى؟ – لقد اشتهى أن يعرف الله. وماذا أراد أوّل ما أراد؟ – لقد أراد أن يصير إلهًا مماثلًا لله. وهذه الحقيقة الأزليّة يبسطها لك صاحب سفر التكوين بأسلوب هو غاية البيان لأنّه غاية في البساطة، وفي رموز تُضفي على الحقيقة العارية سناءً ما مثله سناء. وإليك الحوار الذي دار بين الحيّة وحوّاء كما هو مدوّن في الفصل الثالث من ذلك السفر العجيب:

قالت الحيّة للمرأة:

«أيَقينًا قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنّة؟»

فقالت المرأة للحيّة:

«من ثمر شجر الجنّة نأكل. وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه كي لا تموتا.»

فقالت الحيّة للمرأة:

«لن تموتا. إنّما الله عالم أنّكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهةٍ عارفي الخير والشرّ.»

لقد أيقظت الحيّة الشهوة الأعمق والأقوى في كيان حوّاء. إذ سوّلت لها أنّها وبعلها ساعة يأكلان من الثمر المحرّم يصيران إلهين مماثلين لله. وهذا الإغراء – لا غيره – هو الذي حمل حوّاء على الأكل فأكلت. وأطعمت زوجها فأكل.

إنّها المجازفة الكبرى. وإنّها المجازفة المثلى تلك التي أقدم عليها أبوانا في الجنّة إذ جازفا بحياتهما ليعرفا الله ويصبحا إلهين مثله. وإنّها الرغبة الأصيلة في كيانهما – الرغبة الأمّ التي منها

وإليها كلّ رغبة – دفعت بهما إلى مثل تلك المجازفة. أمّا أنّهما ما عرفا الله في الحال ولا صارا إلهين قادرين على كلّ شيء فما في ذلك ما يحطّ من قيمة مجازفتهما. وحسبهما نتيجة أن يعرفا أنّ الألوهة لا تذاق بالفم ولا تُسحن بالأسنان. ثمّ حسبهما أن يكتشفا أوّل الطريق المؤدي إلى المعرفة وهو طريق الخيبة والحزن والألم والموت – طريق اختبار النفس – طريق الخير والشرّ.

ليس قصدي من هذين المثالين أسوقهما لك من التوراة أن أحملك على الإيمان بقدسية ذلك الكتاب. فلا همّ لي أنظرت إلى التوراة نظرك إلى كتاب مُلهَم أم نظرت إليه نظرك إلى مجموعة من الأقاصيص والتآريخ والأمثال والإرشادات الروحيّة والزمنيّة. ولكنّني وجدت في ذينك المثالين تزكية – وأكرم بها من تزكية – لعقيدة راسخة في ذهني وهي أنّ رغبة الإنسان في الوصول إلى الله – أي إلى المعرفة التامّة والمقدرة الكاملة والحرّيّة القصوى – هي رغبة أصيلة وعميقة في كيانه. وهي الرغبة التي منها تتولّد وتتغذّى جميع رغباته. وهي التي تدفعه على السير بغير انقطاع في طريق الخير والشرّ لتنتهي به إلى ما فوق الخير والشرّ.

هي تلك الرغبة بعينها دفعت بأسلافنا إلى بناء برج بابل ليكون لهم بابًا إلى الله. وهي التي دفعت بالأجيال التي تلت، وما تزال تدفع بنا اليوم، إلى بناء أبراج أين من ضخامتها برج بابل. ولكنّ مصيرها واحد أكانت مبنيّة باللّبِن والحمر، أم بالجير والحجر، أم بالإسمنت والحديد. إنّ مصيرها الانهيار. ومصير الذين بنوها ويبنونها البلبلة. ذاك لأنّ رغبتنا في الوصول إلى الله يستحيل تحقيقها عن طريق أبراج نبنيها بأيدينا خارج قلوبنا وخارج أرواحنا. فالله الذي هو ضمير الكائنات وروحها ونظامها لا يدرَك إلّا بالضمير والروح والنظام. فكأنّه إذ بلبل ألسنة الذين بنوا برج بابل، إنّما أشفق عليهم ينفقون قواهم العقليّة والجسديّة جزافًا. أو كأنّه إذ أفسد عملهم عليهم إنّما شاء أن يقول لهم: «ما من مثل هذا الباب تدركونني. فتّشوا لكم عن موادّ غير هذه الموادّ، وعن باب غير هذا الباب».

قلت إنّ الإنسانيّة ما فتئت تبني لها أبراجًا منذ أن حاولت بنيان برج بابل. وذاك بالطبع قول مجازيّ. فما أظنّ أنّ الذين بنوا برج بابل كانوا من سذاجة التفكير وعقم الخيال، حيث توهّموا أنّ في استطاعتهم الوصول إلى الله ببناء من طين حتّى ولو نطح برأسه الجوزاء. فلا برج بابل ولا الأبراج التي تتالت بعده كانت غير مدنيّات شادها الناس في شتّى العصور، مؤمّلين أن يبلغوا بها الغبطة المثلى التي ما برحت تصبو إليها أرواحهم وتشتاقها قلوبهم منذ أن استوطنوا الأرض. وتاريخ البشريّة الطويل أشبه ما يكون بمتحف للعاديات. فهو يكاد ينشقّ لكثرة ما تكدّس فيه من ركام تلك المدنيّات، وقد علاها العفن والغبار، وعشّش فيها العثّ والفأر، وحاكت لها عناكب الزمان أكفانًا من النسيان، تمزّقها من آن إلى آن فلا تلبث العناكب أن تعيد نسجها من جديد.

لقد شاءوا لبرج بابل الثبات فلم يثبت. لأنّه ما بني من موادّ تهزأ بالعناصر وتقهر الزمان. وشاءوه بابًا إلى الفهم، فكان بابًا إلى البلبلة. وكوّة للنور، فكان هوّة للظلام. وطريقًا إلى الحياة، فكان طريقًا إلى الموت. والأبراج – أو المدنيّات – التي شُيّدت من بعده، ما كان نصيبها من البقاء بأوفر من نصيبه. والناس، مع ذلك، ما كلّوا ولا ملّوا ولا يئسوا. فرغبتهم في الوصول إلى الله – إلى المعرفة، إلى القدرة، إلى الحرّيّة – أقوى من الكلل والملل واليأس.

وها نحن أبناء هذا العصر، وبيننا وبين بابل هوّة سحيقة من الدهور، نظنّنا اجترحنا معجزة ما أتى بمثلها البابليّون ولا الفرس ولا المصريّون ولا الروم ولا الرومان ولا العرب ولا أهل الهند والسند وجميع الجزر المنثورة في عرض البحار. ومعجزتنا هي هذه المدنيّة التي بنيناها لبنة إلى لبنة ولبنة فوق لبنة، حتّى غمر الأرض ظلّها وتغلغلت في كبد السماء أنوارها. بنيناها من أنقاض سائر المدنيات التي سبقتها، ثمّ زدنا عليها من الزخارف ما لم تشهد نظيره الأرض منذ فجر الزمان. بنيناها وما نزال نبنيها بلحومنا وعظامنا. وشددناها وما نزال نشدّها بعضها إلى بعض بدموعنا ودمائنا. ولكنّ خلافًا عظيمًا نشب بين البنّائين حول لون البناء كيف يكون، وحول باب البناء كيف يتّجه. أيكون اللون أحمر فاقعًا، أم أصفر باهتًا، أم أزرق سماويًّا، أم أغبر رماديًّا، إلى آخر ما هنالك من ألوان؟ ثمّ أيتّجه باب البناء إلى «أعلى» أم يتّجه إلى «أسفل» – إلى السماء أم إلى الأرض – إلى بحبوحة الروح والقلب أم إلى بحبوحة البطن والجيب؟

وانتقل الخلاف إلى الحرّاس. فهذا الحارس يتّهم ذاك بأنّه ينام عن حراسة البناء فهو لا يصلح للحراسة. وذاك يتّهم هذا بأنّه يُدخل خلسة إلى البناء عناصر دأبها الهدم والخراب. ومن البنّائين والحراس انتقل الخلاف إلى رؤساء الورش ثمّ إلى العمّال البسطاء – إلى الذين يحملون الأثقال على أكتافهم وظهورهم ليل نهار فيرتاح غيرهم وهم لا يرتاحون، والذين يخبزون للبنّائين والحرّاس خبزهم ويطهون لهم طعامهم، فيأكل البنّاؤون والحرّاس ويشبعون، أمّا هم فيأكلون من فضلاتهم ولا يشبعون. واشتدّ الخلاف واحتدم الجدال بين الكلّ – من رئيس البنّائين ورئيس الحرّاس حتّى آخر عامل يجبل الطين. واحمرّت الأعين، وتكهربت الأعصاب، وثارت ثورة الألسن، وصُمّت الآذان فما يسمع واحد ما يقوله الآخر، وإن هو سمع فلا يفهم.

لعمري إنّ بلبلة الذين بنوا برج بابل ما كانت غير ثرثرة الطفل إزاء بلبلة نحن فيها اليوم. إنّها بلبلة تكاد تبلغ حدّ الجنون. بل هي الجنون بعينه. ولو أنّ كائنًا هبط علينا من المرّيخ، وسأل المتخاصمين علامَ خصامهم، وفيمَ تشاتمهم وضوضاؤهم، لما لقي جوابًا غير ما يلقاه عاقل في بيت المجانين.

إنّ ما تبتغيه أمم الأرض بألسنتها وشفاهها، وما تقتتل في سبيله فتجود بلحومها ودمائها، لهو نقيض ما تحتاج إليه قلوبها وأرواحها. وماذا تبتغي أمم الأرض بألسنتها وشفاهها؟ إنّها لتبتغي

استقلالًا وحرّيّة وبحبوحة وسلمًا دائمًا. أمّا كيف تستقلّ أمّة عن أمّة في عالم تشابكت مصالحه ومجاري حياته تشابك الشرايين في الجسد الواحد، وكيف تتحرّر أمّة من أمّة وأنفاس الواحدة في صدر الأخرى، ويد هذه في جيب تلك، وأفكار تلك في رأس هاتيك، وكيف تعيش أمّة في بحبوحة وجارتها في ضنك، وكيف تحيا في سلم مع جاراتها، أمّة لا تسلّم على جارة إلّا وفي يدها خنجر أو قنبلة! أمّا كيف يكون كلّ ذلك، فالجواب عليه ليس عندي بل عند الذين جعلوا من المدنيّة بيتًا للمجانين.

أليس أنّ شعوب الأرض منذ أقدم الأزمان حاولوا بناء مدنيّات تكفل لهم الاستقلال والحرّيّة والبحبوحة والسلم الدائم؟ وماذا جنوا من محاولاتهم؟ لقد بارت مدنيّاتهم، وما خلّفت لهم غير الخيبة والبلبلة. ذاك لأنّهم طلبوا الحرّيّة والبحبوحة والسلم من غير أبوابها. فهل نحن طالبوها من أبوابها؟ وهل لمدنيّتنا إكسير جديد ما عرفته سالف المدنيّات يكفل لها البقاء ولنا الهناء؟ أوّاه! ليس لديها من إكسير غير تعويذة جرباء جوفاء دعتها «الديموقراطيّة».

إنّي لكثرة ما تطرق هذه الكلمة مسمعي بإذن وبغير إذن، ولكثرة ما تساور بصري في الصحف والكتب، أصبحت أكرهها كره السمّ والبرص. فما عرفت كلمة تعني الأسود والأبيض معًا، والحرّيّة والعبوديّة، والسلم والحرب، وتستر أشنع وجوه الظلم بأبهج مساحيق العدل كهذه الكلمة. فلا عجب أن تكون مصدر أكبر بلبلة عرفها الإنسان حتّى اليوم. ثمّ لا عجب أن تكون العتلة الأولى والأضخم في تقويض مدنيّتنا. فالديموقراطيّة، حتّى في أجمل مظاهرها، ما عدت كونها نوعًا من حكم الإنسان للإنسان. ومتى كان حكم الإنسان للإنسان مبعثًا للحرّيّة والبحبوحة والسلام؟ إنّه كان وما برح العامل الأقوى والأهمّ في ثورة الإنسان على الإنسان وكره الإنسان للإنسان. فنحن قد نستسلم عن كره أو عن طواعية لسلطان الطبيعة فينا. أمّا أن نقبل سلطان إنسان نظيرنا غير مكرهين، فأمر ينافي الرغبة الباطنيّة فينا. وأعني رغبة التحرّر من كلّ قيد وحدّ.

والتحرّر من كلّ قيد وحدّ لا يكون بأيّ نوع من الحكم أو الفوضى. ولا بأيّ نوع من المدنيّات نشيّدها ثمّ نهدمها. ولا بالذعر والصخب والضجيج والجنون.

لعلّنا متى انهارت مدنيتنا نتعلّم، أو يتعلّم الآتون بعدنا، ما لم يتعلّمه الذين بنوا برج بابل والأبراج التي قامت ثمّ زالت من بعده. وهو أن الحرّيّة لا تكون إلّا بالمعرفة. والمعرفة لا تكون إلّا بالتعاون. والتعاون لا يكون إلّا بالمحبّة. وأنّ المعرفة والمحبّة هما نهاية طريق الخير والشرّ، وأوّل الطريق إلى الحياة التي لا يحدّها خير ولا يحصرها شرّ.

هل الحبّ أعمى؟

الحبّ أعمى.

عين الحبّ عمياء.

القرد في عين أمّه غزال.

أحبّ حبيبي وإن يكن عبدًا أسود.

هذه أقوال عرفتها العربيّة، فصيحها وعاميّها، منذ أقدم الأزمان، ولها ما يماثلها في جميع لغات الأرض. ومغزاها يكاد يكون واحدًا. وهو أنّ الحبّ يعمي المحبّ عن كلّ سيّئة في محبوبه. بل إنّه يقلب السيّئة حسنة، والبشاعة جمالًا.

وهل ذلك من العمى في شيء، إنّه السحر بعينه. وإنّه النور الذي يبدّد الظلمات. فهو أبعد ما يكون عن العمى، كما نفهم العمى، وأجدر ما يكون بالدهشة التي تثيرها الخوارق لا بالشفقة التي يبعثها فينا منظر كفيف يستدلّ على طريقه بعصاه.

والعمى أنواع. أبرزها اثنان: فعمى يحجب النور، وهو محنة وبليّة. وعمى يحجب الظلمة فهو عطيّة سنيّة. وعمى الحبّ من النوع الأخير الذي يحجب النقائص.

من بين كلّ العواطف التي يختلج بها القلب البشريّ ليس من عاطفة أنبل وأسمى وأقوى من الحبّ. إنّها العاطفة التي تُخرج العجائب. فنحن لو جنّدنا كلّ ما في الإنسان من ذكاء وعبقرّية ودهاء لما استطعنا أن نخلق من القرد غزالًا. أمّا الحبّ إذا ما تربّع في القلب وبثّ أنفاسه في نياطه وشغافه، استطاع في أقلّ من طرفة عين أن يعبث بالناس وتقاليدهم، وبالطبيعة وسننها على هواه. فالعليل يبرأ، والقبيح يجمل، والضعيف يقوى، والقصيّ يدنو، والخشن ينعم، والقاسي يلين، والمحدود يغدو بغير حدود. وإذا الأبديّة لمحة واللمحة أبديّة. وإذا الفضاء بكلّ ما فيه سرير دافئ وثير. فالزمان والمكان كلاهما عبد طيّع للحبّ ومطيّة ذلول.

إنّ سحر الحبّ يفوق كلّ سحر. وكيمياؤه أين منها كيمياء الأنابيق والغازات في المختبرات؟ أوَليس أن الناس حاولوا، وما زالوا يحاولون، تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة؟ ولكنّهم ما أفلحوا حتّى اليوم. أمّا الحبّ فما أنفكّ منذ أن كان الناس، يجعل من الصعاليك ملوكًا، ومن الشياطين ملائكة، ومن الأنذال أبطالًا، ومن سلالة آدم وحوّاء آلهة خليقين بالتسبيح والعبادة. ومن ذا غير الحبّ يستطيع أن يسمو بالإنسان إلى حدّ أن يجعله يخاطب إنسانًا نظيره بمثل هذه الكلمات: «يا روحي» و«يا حياتي» و«يا نور عيني» و«يا معبودي» وما شاكلها؟

إنّما الحبّ وحده – تباركت كيمياؤه – يملك السرّ في تحويل الإنسان إلى ما فوق الإنسان. والحبّ وحده – تبارك سحره – يملك المفتاح إلى قدس أقداس السعادة التي ينشدها الكلّ فلا يلمحون وجهها الإلهيّ إلّا في لحظات نادرات هي من العمر زبدته ولبابه، وناره ونوره. وما تبقّى فرغوة وقشوة. وحطب ورماد.

نعم. هو الحبّ يجلو بصائرنا وأبصارنا. وإذا بنا مرآة صافية تعكس المحبوب صافيًا. وإذا المحبوب أكثر من عظم ولحم ودم، وأكثر من بشر يعقل وينطق ويأكل ويشرب ويشتهي أشياء ويهرب من أشياء. وإذا به فتنة وروعة وجلال وطعام وشراب لا تستقيم لنا بدونها حياة. فهو الكيان المتمّم لكياننا. هو الحياة في حياتنا، والرجاء في رجائنا، والإيمان في إيماننا. به نكتمل ونخلص. وبدونه نبقى ناقصين ونهلك. به نحيا وبدونه نموت. به الوجود حلاوة وهناءة. وبدونه حسك وحنظل.

إلّا أنّ الحبّ لا يدوم. فما إن يشرق حتّى يغرب. وما إن يحلّ في القلب حتّى يرتحل. فيمضي وكأنّه الطيف في المنام. وتأتي اليقظة فلا يبقى من الحبّ غير الذكرى. وإذا المحبوب عظم ولحم ودم تتحكّم فيها الشهوات البشريّة بعديد أصنافها. فآنًا تسوقها شرقًا وآونة غربًا. وإذا نحن نبصر في المحبوب أكثر من نقص واحد وأكثر من سيّئة واحدة. ففي مشيته وفي حديثه وفي هندامه وفي كلّ حركة من حركاته أشياء يمجّها ذوقنا وتنفر منها أذننا وتمتعض عيننا وينكمش قلبنا. وهو، إلى ذلك، يكثر من شكواه منّا. فكلانا يشكو صاحبه. أترانا يوم أبصرناه خاليًا من النقص ما أبصرنا غير وهم؟ أم ترى العين التي أبصرنا بها ونحن في ذروة الحبّ كانت رمداء وعمياء فما أبصرناه على حقيقته؟

وبعبارة أخرى، أيّ العينين أحرى بالتصديق: عينٌ تحصّنَ الحبّ في إنسانها وأجفانها فما تبصر غير الجمال؟ أم عينٌ هجر الحبّ إنسانها وأجفانها فلا تبصر غير الشناعة؟ أو أنّها لا تلمح الجمال حتّى تلمح بجانبه الشناعة؟ فقاموسها أوّله «لولا» وآخره «يا ليت».

إنّ جوابي لا يحتمل الشكّ ولا التأويل. فالناس، في عقيدتي، عميان. إلّا متى أحبّوا حبًّا لا شرك فيه ولا التواء، فهم إذ ذاك مبصرون. أمّا أنّ حبّهم لا يقيم العمر، ولا يتألّق حتّى يخبو فالذنب في

ذلك ذنبهم. والحبّ منه براء. ذلك لأنّ الحبّ سيّد مطلق لا يطيق فوق سيادته سيادة. فهو يقود ولا يقاد، ويسوق ولا يساق، ويأمر ولا يأتمر. ولأنّه سيّد الزمان والمكان تراه إذا احتلّ قلبًا ولو لحظة أو لحظات قصيرات جعله أفسح من الأرض والسماء، وأعتق من الأزل، وأفتى من الأبد. هو الطريق والدليل. وهو الغاية والواسطة والبداية والنهاية.

إلّا أنّ الناس أطفال عابثون. فما يكاد واحدهم يحسّ دبيب الحبّ في دمه حتّى يروح يعبث بالحبّ. فحينًا يسخره لشهوات لحمه ودمه. وحينًا يحاول حبسه في أقفاص غاياته الأرضيّة والزمنيّة. ثمّ يعجب للحبّ كيف تبخّر ومن أين أفلت وطار، ويخيّل إليه أنّ ما كان لم يكن. وأنّ حلاوة سماويّة تذوّقها ما كانت غير حلاوة يتذوّقها حالم في حلمه. وأنّ الحياة حقيقة قاسية نهايتها الخيبة لا الحظوة.

ويا ليت الذين يندبون حبّهم الظاعن وخيبتهم المقيمة يفتّشون قلوبهم وأفكارهم ويغربلون نيّاتهم واعمالهم. إذن لأدركوا أنّ الحبّ ما ارتحل عنهم إلّا لأنّهم ما أحسنوا فهمه والامتثال له.

ولعلّ أوّل ما ينبغي أن نفهمه عن الحبّ هو أنّه قوّة شاملة لا تقبل الحصر والتجزئة. فالحبّ حبّ كامل إذا هو تناول جسد الكون الكامل. فما انحصر في جزء دون جزء أو صفة دون صفة. وإذ ذاك فهو الحبّ الذي تزول السماء والأرض ولا يزول. والكون كالحبّ، وحدة لا تتجزّأ. فمن أحبّه بكامله كان حبّه كاملًا وكان مبصرًا أبدًا. ومن أحبّ بعضه دون بعض أو أحبّ ذرّة منه وأبغض ذرّات، كان حبّه مبصرًا على قدر ما يحبّ وأعمى على قدر ما يبغض. ذاك لأنّ الحبّ نور والبغض ظلمة. ونحن لو كان لنا أن نبصر كلّ ما في الكون على نور الحبّ لما أبصرنا فيه غير الجمال. ولكنّنا ما نزال قاصرين عن بلوغ الحبّ الكامل لأنّنا ندين مع الحبّ بدين البغضاء والكراهية. وعين البغض والكراهية عمياء.

قلت إنّ الحبّ مفتاح السعادة. فلولاه لما تذوّق إنسان غبطة الوجود ولا انتشى بخمرة الحياة. فنحن مدينون للحبّ لا لسواه بتلك الومضات الخلّابة التي تكشف لنا آفاقًا رحبة تتألّق بأشهَى الآمال والأماني، وتسمو بنا إلى حيث نفلت من جاذبيّة الزمان والمكان. فلا هموم ولا أثقال، ولا شكوك ولا مخاوف، ولا بدايات ولا نهايات. بل ديمومة تملى بغبطة الدوام.

وهل الحبّ إلّا ذوبان المحبّ في محبوبه، ثمّ ذوبان الاثنين في الكائنات؟ إنّه الشعور بأنّ محبوبك هو الكون والكون محبوبك. فالاثنان وحدة شاملة كاملة. وإنّك من ذلك الكون بمثابة الروح من الجسد. وإنّه جسد كامل وروح كامل.

ذاك هو العالم الذي يفتح الحبّ لنا بابه ويدخلنا إليه. وهو حقيقة لا وهم. أمّا إنّنا سرعان ما ندخله وسرعان ما نخرج منه فليس في ذلك ما ينفي وجوده. وكيف ننفي وجوده وقد رأيناه وخبرناه وتذوّقناه؟ ولكنّ العين التي رأيناه بها – وهي عين الحبّ المتألّق، المتسامي، المنزّه عن كلّ شوق

غير شوق الفناء في المحبوب – ما لبثت أن عاد إليها رمد الأنانيّة المحدودة التي تأبَى الفناء فلا تستطيع أن تبصر شيئًا إلّا إذا أبصرت نقيضه. وعالم الحبّ عالم لا مجال فيه للمتناقضات. فلا عجب أن يتحجّب عن العيون الرمداء فكيف بالعمياء؟

إنّ الحياة ما جعلتنا نتذوّق الحبّ إلّا لتدلّنا على الطريق إلى قلبها الحنون، الدافئ، الكريم حيث الوجود وحدة شاملة تتعالى فوق كلّ المتناقضات. فكأنّها تقول لنا: «هذا هو الفردوس المعدّ لكم منذ تأسيس العالم. وهو فردوس لا تبصره غير عين محبّة ولا يدخله غير قلب محبّ. فمن شاء أن يسكنه دائمًا أبدًا عليه أن يحبّ دائمًا أبدًا.»

وإذ ذاك فعملنا في الحياة هو أن نتعلّم كيف نحبّ الحياة حبًّا صافيًا كيما نراه بعين الحبّ الصافية. وأن نحبّها لا ساعة ولا شهرًا بل حبًّا لا انقطاع فيه ولا فتور. وأن نحبّها شاملة كاملة لا أن نحبّ بعضها ونبغض البعض.

فنحن إذ نحبّ الحياة كاملة شاملة، مبصرون. ونحن إذ نحبّ بعضها دون البعض، عوران. ونحن إذ نكرهها، عميان.

بشائر الربيع

للشهور وللفصول وجوه ومعانٍ تتنوّع بتنوّع المناطق. فأيّار في سيبيريا غير أيّار في نيجيريا. والشتاء في البنغال غير الشتاء في الصومال. ونحن الذين اخترنا لسكنانا المناطق العالية في لبنان نعرف أنّ آذار في بسكنتا أو العاقورة أو بشرّي هو غير آذار في بيروت أو جونيه أو طرابلس.

وعهدنا بآذار (مارس) أنّه الشهر الذي ينعي إلينا الشتاء ويبشّرنا بالربيع. فلا هو من الشتاء في الكبد والرئتين، ولا هو من الربيع في القلب والعين. ولكنّه بين بين. إذا مشى بين رفاقه الأحد عشر فضحته قيافته. فما تدري أهي قيافة المدعوّ إلى مأتم أم المدعوّ إلى مهرجان. إذ إنّ عليه بقايا من فرو كانون الثاني الناصع البياض وقد تلطّخ بالسواد وهلهلته الشمس والرياح، مثلما عليه ما يشبه الوشم من سنادس نيسان. أمّا يداه فلا تحملان هدايا ذات بال وتحملان الكثير من الوعود والآمال.

ليس لآذار ما يحسده عليه باقي الشهور. إلّا إذا كان لهمزة الوصل ما تُحسد عليه بين حروف الهجاء. فما تغزّل شاعر بورد آذار أو بثماره، أو بلياليه أو بنسائمه. ولا حدّثت عجوز حُفَداءها عن عتمة آذار أو عن صقيع آذار. ولعلّ ذلك ما حدا به في غابر الأزمان أن يقول في نفسه ما لم يقله فيه أحد من رفاقه أو من الناس: «أنا آذار الهدّار، أبو الثلجات السبع الكبار ما عدا الصغار» فما صدّقه أسلافنا ولا صدّقناه نحن. فشقّ عليه الأمر. وحزّ في نفسه أن نستخفّ به من بين كلّ الشهور. ولذلك صحّ عزمه في هذه السنة على الاقتصاص منّا والتنكيل بنا أيّما تنكيل. وكان له ما أراد. وكان قصاصه بالغًا وبليغًا. وها أنا أشهد – ولست غير واحد من آلاف الشهود – بأنّ آذار حقًّا هدّار، وأنّه فارس مغوار، لا يُصطلى له بنار.

سلّم آذار علينا في هذه السنة بالقليل من الثلج وبالكثير من الصقيع. ثمّ انحسرت حجب الغيوم عن وجه السماء فبان أزرق صافيًا، وانبرت الشمس تتزحلق أشعّتها على الجبال البيضاء من حولنا. فدبّ الدفء في ضلوعها، وماعت أحشاؤها المتجمّدة. وكرّت المياه من الأعالي إلى المنحدرات تتلاقى هنا وتتفارق هناك فتغنّي متلاقية وتغنّي متفارقة. فخمدت النار في المواقد أو

كادت، وخرج الناس من أوجارهم يضحكون للشمس وتضحك الشمس لهم ويهنّئ بعضهم بعضًا قائلين: لقد صُرع الشتاء. وها هو هودج الربيع يطلّ علينا من وراء الأفق الأزرق.

ولكنّ آذار كان يضحك منّا هذه المرّة لا لنا. وكان، ونحن في غفلة عمّا نواه بنا، يتفقّد مخازن وقودنا حتّى إذا اطمأنّ إلى قرب نفادها انقضّ علينا بخيله ورجله. وخيله كانت بروقًا ورعودًا وصواعق. وكانت رجله شآبيب استعارها من البحر فلَهث عليها من لهاثه القارس وأنزلها جحافل بيضاء جرّارة لا تبصر العين لها أوّلًا ولا آخرًا. وهي في نزولها ونزالها لا تعرف التردّد ولا الوجوم ولا الإحجام. بل تتسابق إلى الميدان تسابق العشّاق إلى العناق. وهي آنًا بَرَدٌ ينطلق انطلاق الرصاص، وآنًا سويقٌ أبيض يماشي الريح في كلّ جانب، وآونة رقاع متفاوتة الحجم تدور في رقصة متماهلة، ولا تنفكّ ترتفع قيراطًا ثمّ تهبط ذراعًا إلى أن تبلغ الأرض فتستقرّ وتستكنّ. وما هي إلّا ساعة أو أقلّ حتّى شابت القرية – مساكنها وجنائنها وترابها. فهي والجبال من حواليها قطعة من عالم مسحور وقد ران عليه سبات ولا سبات أهل الكهف.

إنّها لَسَكتة رهيبة تلك التي بسطتها كفّ آذار علينا وعلى جبالنا. فلا ما يزحف أو يدبّ، ولا ما يمشي على رجلين أو يصفّق بجناحين. وإنّ في تلك السكتة لخشوعًا لا يشعر بمثله المصلّون في المعابد، ولا المتأمّلون في المناسك. فهي الصلاة ما تمتمت بها شفتان، وهي العبادة ما انحنت فيها ركبتان، وهي الأعماق من تحتها الأعماق، والأعالي من فوقها الأعالي. يدرج القلب في منعطفاتها فلا يعثر، ويحلّق الخيال في أجوائها فلا ينتهي إلى حدّ. ولقد حاولت غير مرّة أن أسمع فيها ولو أصداء خافتة لصرير العجلات، وقوقعة الشهوات، وتطاحن الغايات. أو أن أبصر فيها وجوهًا في المشارق تكشِّر لوجوه في المغارب كما يكشّر الذئب للكلب أو الضبع للذئب، فما استطعت أن أسمع غير قلب الكون نابضًا في ضلوع الأرض، ولا أن أبصر غير ثغر البحر لاصقًا بثغور الجبال والأودية.

إي، رهيبة ومليئة بالأسرار هي تلك السكينة البيضاء – سكينة الأرض المنكمشة على ذاتها تحت دثار كثيف من الثلج والجليد. وقد انقطعت أنفاسها وشلّت عضلاتها حتّى لتحسبها المومياء في هجعة الأبدية. وأنت لو بذرت في تلك السكينة جميع مشاكل الناس لما نبتت منها ولا بذرة. فالمشاكل لا تنبت إلّا في العقول التي بعضها في النور وجلّها في الظلام، وإلّا في القلوب التي تمشي على رؤوس الحراب فتبتاع المجد الرخيص بالدم الغالي واللذّة الظاعنة بالألم المقيم.

ربّي! ألعلّك وهبتنا العيون لكي لا نبصر، والآذان لكي لا نسمع، والأنوف لكي لا نشمّ؟ وإلّا فما بالنا نحدّق في هذا المدى الأبيض فلا نبصر غير جراحنا وقد سالت منها دماؤنا غزيرة حمراء؟ ونصغي إلى هذه السكينة البيضاء فلا نسمع غير دبيب شهواتنا السود؟ ونتنشّق هذا الأريج الأبيض فلا نتنشّق غير روائح النتن والفساد؟ ألعلّ الربيع مات؟

ما بالنا نفتّش عن الأمن وقد دفنّاه في مجالس الأمن؟ وعن السّلم وقد كفنّاه بمعاهدات السلم؟ وعن الحرّيّة وقد بعناها في سوق النخاسة لعجوز شمطاء تدعى الديموقراطيّة؟ وعن الإنسانيّة وقد ذبحناها وقدّمناها محرقة لإلاهةٍ عمياء اسمها الوطنيّة؟

اللّهمّ اعطنا نورًا غير الذي يستقرّ في بؤبؤ العين، وسمعًا غير الذي يقرع طبلة الأذن، وشمًّا غير الذي يسري في الخياشيم. لعلّنا نبصر موكب الشمس خلف الغيوم، ونسمع معزوفة الربيع في فحيح العواصف، ونشتمّ أريج الزهر في أنفاس ريح الشمال. ولعلّنا إذا حاصرَنا آذار وضيّق علينا الحصار كما فعل في هذا العام لا يتجمّد إيماننا، وترتخي عزيمتنا، وينشلّ رجاؤنا فنقول إنّ الأرض قد أجهضت وإنّ آذار قد قضى على الربيع وهو ما يزال جنينًا في رحم الأرض. بل نصمد للحصار مهما طال، ونضحك لآذار مهما هدر وزمجر، واثقين من أنّ في هديره بشارة الانبعاث، وفي زمجرته أهزوجة الانطلاق؛ وأنّه لا بدّ من فجر يوم نستفيق فيه من رقدة الشتاء فإذا بآذار يحمل إلينا الربيع على راحتيه ويودّعنا قائلًا: «هاكم المولود الجديد!» وإذا بالسماء مرآة مجلوّة تتهادى الشمس من جانب فيها إلى جانب. وإذا بالثلوج تذوب شوقًا إلى البحر فتنهلّ من عيون الجبال دموعًا صافية باردة. وإذا العصافير تضرب الهواء بأجنحتها ثمّ تسكره بأغاريدها. وإذا البنفسج ينثر أحشاءه المعطّرة على ضفاف الجداول، والأشجار تتورّم براعمها وتلتمع أفانينها. وإذا التراب وما فيه وما فوقه تحفّزٌ فانتفاضة فوثبة فنشوة. وإذا الجمود حركة، والجليد حرارة، والموت حياة، والكلّ تسبيحة علويّة تقذفها شفاه بلا عدّ، ويموج بها فضاء بغير حدّ.

* * *

لقد درج الناس على تقسيم السنة إلى أربعة فصول. ثمّ شبّهوا العمر بالسنة. فهم يتكلّمون عن ربيع العمر وصيفه وخريفه وشتائه. ولكلّ كائن من الكائنات عمر. بل لكلّ فكر ولكلّ عمل عمر. فليس من الغريب أن نتحدّث عن اعمار الشعوب والممالك، وعن أعمار المدنيّات التي تشيدها الممالك والشعوب. وإنّي لألتفت إلى مدنيّة نحن فيها فأسأل نفسي: ترى أين هي اليوم من عمرها – أهي في ربيعه أم صيفه أم خريفه أم شتائه؟

من الناس من لا يتردّد في القول بأنّ مدنيّتنا في ميعة الربيع. ومنهم من يقول إنّها تخطّت ربيعها إلى الصيف. ومنهم من يؤكّد أنّها اجتازت صيفها إلى الخريف. ومنهم من يزعم أنّها في صميم الشتاء. وهنالك فريق يؤمن أوثق الإيمان بأن مدنيّتنا قد اكتشفت سرّ الشباب الدائم فهي باقية ما بقي الإنسان والزمان. ولكلّ من هؤلاء حجّة يسوقها وبرهان يدلي به ودلائل يستند إليها.

أمّا الأمر الذي لا يختلف فيه عاقلان فهو أنّ المدنيّة الحاضرة ما أدركت بعد ولا هدفًا من أهداف الإنسان. فهي ما أخرجتنا من ظلمة حتّى أوقعتنا في ظلمات، ولا حرّرتنا من وهم حتّى كبّلتنا بأوهام، ولا فتحت لنا بابًا حتّى أقفلت في وجهنا أبوابًا. لئن ذلّلت لنا الماء والهواء فقد جعلتنا

أرقّاء للغاب والتراب. ولئن وسّعت بطوننا حتّى لا تكاد تملأها الأرض والسماء فقد ضيّقت قلوبنا حتّى لا تكاد تتّسع لدرهم من العطف واللطف والحنان. ولئن مدّت بأبصارنا إلى أقاصي الفضاء فقد حجبت بصائرنا عن أقرب ما يتّصل بنا من الكائنات. وها نحن في مشاكلها كالأسماك في الشباك. نتخبّط ذات اليمين وذات اليسار فما نهتدي إلى منفذٍ للنجاة. فنعود نتلهّى عن بلايانا بإنزال أنواع البلايا بسوانا. ونعود نتشاتم ونتعاير ونتقاتل، وكلّنا يلوم جاره ويحمّله أوزاره. فنحن ما فعلنا غير الخير كلّ الخير. وجارنا ما فعل غير الشرّ كلّ الشرّ. إذن فالموت لجارنا والحياة لنا.

لقد تنكّر الإنسان للإنسان. فالقلوب جليد ونار، والعقول مكرٌ ومَين، والشفاه فخاخ وشراك، والألسنة عقارب وأصلال، والوجوه تضليل وتمويه. تقاربت الأجساد وتباعدت الأرواح. وتشابكت المصالح المادّيّة وتفكّكت الأواصر المعنويّة. حتّى أصبح الناس ولا شغل لهم إلّا أن يقبّح بعضهم بعضًا، وأن يكيد بعضهم لبعض، وأن يرقص بعضهم في مآتم بعض.

لعمري إنّ مدنيّة توغر قلب الإنسان على أخيه الإنسان لمدنيّة تقوّض أركانها بيدها. وهل قامت المدنيّات إلّا بمجهود جميع الناس؟ وهل من غاية لأيّة مدنيّة إلّا النهوض بالإنسان من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى؟ وأيّ خير في مدنيّة تحاول تعزيز الإنسان بتذليله أو إحياءه بموته؟ إنّها لمدنيّة حلّ بها الخرف، فهي من عمرها في الشتاء.

وأنا إذ أقول إنّ مدنيّتنا قد خرفت وإنّ ربيعها وصيفها وخريفها أصبحت وراءها لا أقول ما يحطّ من قدرها. فقد قامت بواجبها وأدّت رسالتها. بارك الله فيها. ولا أنا أقول ما يزعج أو يزعل أحدًا إلّا الذين يعتقدون هذه المدنيّة أقوى من الزمان ومن تقلّبات الإنسان. وذلك اعتقاد صبيانيّ، وإنّه لمن دلائل عظمة الإنسانيّة وجبروتها وخلودها أن تخلع عنها المدنيّات كما تخلع الأرض الفصول، وأن تتجدّد بمدنيّاتها كما تتجدّد الأرض بفصولها.

وإنّ في ما نشهده اليوم من زعازع وأعاصير تجتاح البشريّة لبشائر غالية كالبشائر التي تحملها إلينا أعاصير آذار وزعازعه. فقريبًا تنجلي السماء عن ربيع بكر لإنسانيّة ما فتئت تحبل بالعجائب وتلد العجائب وستبقى تحبل وتلد إلى أن تلد العجيبة الكبرى وهي عجيبة الإنسان المنعتق من ربقة الفصول وقد عانق أخاه الإنسان عناقًا تصفّق له الملائكة، وتباركه الآلهة، وتغنّي له المسكونة بكلّ ما في قلبها من قوّة وغبطة وحياة.

التعاون والتنابُذ

تتعاون الكائنات وتتنابذ طوعًا لمشيئة ما تزال محجَّبة عن مداركنا وأبصارنا. والذي نعرفه من أمر التعاون والتنابذ أنّ الأوّل يرمي إلى البناء والحياة، والثاني يؤدّي إلى الهدم والانحلال. ونحن ككائنات حيّة تقرّ عيوننا، وتنشرح صدورنا، وتبتهج أفكارنا بمشاهد التعاون في الكون، وتتكمش بمشاهد التنابذ. وحسبك أن ترقب النحل في خلاياه، والنمل في قراه، لتعرف كم في تعاونها العجيب من متعة للعين والقلب والخيال!

كذلك قل في بعض الطير التي تعيش أسرابًا، وبعض الحيوانات التي تعيش قطعانًا، فهي في الغالب تتفانَى في الذود عن كيانها. فالكلّ للواحد، والواحد للكلّ. إذا ضاقت بها بقعة من الأرض أرسلت الرُّوّاد ينتجعون لها مراعي جديدة. وإذا انتشرت في مرعى أو اجتمعت في مبيت أقامت الحرّاس من كلّ جانب ينذرونها بأقلّ خطر مداهم. وإذا كان وقت القيلولة انصرفت إلى الراحة أو إلى اللعب أو إلى التغريد. وهذه كلّها مظاهر مختلفة لشعور واحد، هو شعور الجذل بالوجود والغبطة بالتعاون على البقاء.

إن يكن لنا الكثير من المتعة في تأمّل التعاون ما بين أجناس الحشرات والطير والحيوان فالمتعة الكبرى يجب أن نجنيها من تأمّلنا الأجساد الحيّة على اختلافها، والجسد البشريّ على الأخصّ. فأجسادنا نتيجة رائعة للتعاون العجيب ما بين كلّ عضو من أعضائها وكلّ ذرّة من ذرّاتها. والجسد البشريّ السويّ كناية عن عالم منظّم أفضل التنظيم ومدرّب أحسن التدريب للتعاون الكامل في سبيل حياة موحّدة وغاية موحّدة. فالدم لا يعمل عمله من أجل العين والأذن، أو من أجل الأنف واللسان لا غير، بل من أجل كلّ شعرة وكلّ ظفر وكلّ خليّة من خلايا الجلد واللحم والعظم. وكذلك القلب والرئتان والكبد والمعدة والأمعاء وسائر الأعضاء. فجميعها إذ تعمل بعضها في سبيل بعض إنّما تعمل في سبيل الجسد الموحّد. وتلك، لعمري، ظاهرة من أروع ظاهرات التعاون. أمّا متى حلّ

التنابذ بين أعضاء الجسد الواحد – ونحن لا ندري متى يحلّ ولا لماذا يحلّ – فمصير ذلك الجسد التفكّك فالانهدام فالانحلال.

وإذا انتقلنا من الجسد البشريّ الواحد إلى مجموع الأجساد البشريّة التي يتكوّن منها الجسد الأكبر، أو الإنسانيّة الشاملة، أدهشنا ما في ذلك الجسد من مظاهر التعاون. فالشعوب، برغم ما بينها من تنابذ وتنافر وتقاطع، ما برحت من البدء في تعاون دائم. ولولا ذلك التعاون لتفكّكت البشريّة من زمان فانهارت معالمها وحلّ بها الانحلال. ولو أنّ أمّة قامت اليوم تحصي كلّ ما هي مدينة به لباقي الأمم، وكانت أمينة في إحصائها، لأذهلها مقدار ما اقترضته وأقرضته. حتّى لبان لها أنّها مدينة بدمائها ولحومها وعظامها، وبقوتها وكسائها ومأواها، وبتقاليدها ومعتقداتها، وبمشاعرها وأفكارها لكلّ أمّة من أمم الأرض. فالتبادل في الأمتعة وفي الآثار والأفكار ما زال قائمًا بين الناس منذ أن استوطنوا الأرض. أمّا الحروب فإن عرقلته من جانب فقد نشّطته من جوانب أخرى.

ولكنّ البشريّة تشكو اليوم تنابذًا بين أعضائها ما شكت مثيله من قبل. وشكواها قد ارتفعت عالية، صاخبة إلى حدّ أنّها تكاد تقصي عن مسامعها كلّ أصوات التعاون الذي ما برح قائمًا بين أعضائها. وأنت تسمع في هذه الشكوى نغمة القلق، بل نغمة القنوط من المستقبل. فكأنّ البشريّة أمست تشعر بأنّ التنابذ قد دبّ في أعضائها دبيب السرطان في خلايا الجسم، وأنّ ذلك السرطان الخبيث لن يتوقّف في زحفه حتّى يقضي على البشريّة قضاءً مبرمًا.

إنّه لجوّ ثقيل ومحموم ومكفهرّ ذلك الجوّ الذي يعيش فيه إنسان اليوم. وإنّه لمن الخير لنا أن نذكر أنّه جوّ مصطنع إلى حدّ بعيد. فمن الخزي أن يكون في الأرض أناس يسوءهم التعاون ولا يرضيهم غير التنابذ بين شعوب الأرض، وأن يكون لدعاة التنابذ مضخّمات للصوت تمضي بأصواتهم إلى أقاصي الأرض فتتغلغل في قلوب الكثير من الناس وأفكارهم تغلغل النعاس في الأجفان، وتصرفهم من حيث لا يشعرون عن ميادين التعاون إلى ميادين التنابذ، جاعلة من الأرض ساحة حرب دائمة، ومن سكّان الأرض معسكرين تفصلهما هوّة سحيقة من سوء التفاهم.

أجل! إنّه الخزي الذي ما بعده خزي أن يكون التعاون سنّة في الأرض برغم كلّ ما بين الشعوب من حواجز وفوارق، وأن يقوم في الناس من دأبهم توجيه الناس إلى التنابذ بحملهم على التمسّك الأعمى بالحواجز والفوارق. والتوجيه في هذه الأيّام مهنة عظيمة الشأن تحذقها أتمّ الحذق مصالح الدعاية عند الأمم. والدعاية لا تتورّع في الوصول إلى غاياتها عن استخدام أنفس القيم الروحيّة وأنبل العواطف. فما أكثر ما تسوق الله في طليعة موكبها ومن خلفه الحقّ والعدل والحرّيّة والسلام والطمأنينة. في حين أنّ غاياتها أبعد ما تكون عن الله وعن الحقّ والعدل والحرّيّة والسلام

والطمأنينة. ثمّ إنّها تسوق في موكبها نخبة من الأقلام والمواهب فتكاد تستأثر بالعلم والفنّ والأدب والتربية وسائر الأجهزة التي لها السلطان الأكبر على عقول الناس وأجسادهم.

وعهدنا بالعلم أنّه أداة جمع لا أداة تفرقة – أداة تعاون بين الناس لا أداة تنابذ. وكذلك الفنّ والأدب والتربية وكلّ فرع من فروع الثقافة الإنسانيّة. ومن حسن حظّ البشريّة أنّها ما عدمت بعد أناسًا ينظرون إلى العلم والفنّ والتربية نظر البنّاء إلى الطين يشدّ به البناء بعضه إلى بعض لا نظر الحجّار إلى الإسفين يشقّ به الصخر شقًّا أو إلى المطرقة يفتّته بها تفتيتًا. والمؤسسة العالميّة المعروفة باسم الأونسكو قائمة على الإيمان بأنّ العلم والفنّ والتربية طين يشدّ بناء الإنسانيّة بعضه إلى بعض. فهي أداة تعاون لا أداة تنابذ. ومن الخير لكلّ من يؤمن إيمانها بضرورة التعاون بين الناس أن يتجنّد لها ويمشي تحت لوائها على قدر ما في مستطاعه.

دعوها «مؤسّسة التربية والعلم والثقافة لهيئة الأمم المتّحدة» وهو اسم طويل كنت أودّ لو أنّه اقتصر على كلمة «الثقافة». أليس أنّ العلم بعض من التربية؟ أليس أنّ العلم والتربية بعض من الثقافة؟ ومن ثمّ فيا ليت هذه المؤسّسة ما انبثقت عن «هيئة الأمم المتّحدة»، بل عن رغبة مستقلّة في صفوف رجال التعاون من أيّ جنس كانوا وإلى أيّما إقليم انتسبوا. إذنْ لكان نصيبها من البقاء وطول العمر وحسن السمعة ومدى التأثير في مجاري التعاون العالميّ أكبر منه اليوم بكثير.

وماذا عساك ترجو من العمر والأثر لمؤسسة جدّتها «جامعة الأمم» ووالدتها «الأمم المتّحدة» وكلتاهما وليدة السياسة وكلّ ما تنطوي عليه السياسة من جراثيم وحسد ومكر وطمع وأثرة وما تولّده كلّ هذه من تنابذ وشقاق ونزاع وضغائن؟ لذلك قضت الأولى وهي في عنفوان الصبا والجراثيم التي فتكت بها هي عينها التي تفتك الآن بابنتها على مسامع الناس وأبصارهم. فكيف تؤمّل الحياة الطويلة لمؤسّسة طفلة كالأونسكو ترضع الحياة من ثدي تخثّر لبنه بجراثيم الموت؟

لا أريدك أن تفهم من ذلك أنّني لا أرى أيّ خير في الأونسكو. بل على العكس. فأنا أتفاءل بخير عميم للإنسانيّة من كلّ مؤسّسة ترمي إلى التعاون العالميّ وإن يكن حظّها من النجاح ضئيلًا في البداية. وحسبك من هذه المؤسّسات أنّها تدلّك على أشواق عميقة كامنة في وجدان البشريّة كمون النار تحت الرماد، وأنّ هذه النار تلتمع ثمّ تتلظّى كلّما أتيحت لها ريح تذرو جانبًا من الرماد عنها. وقد كان لنا مثل تلك الريح في الحرب العالميّة الأولى وفي الحرب العالميّة الثانية. أمّا أنّ الرماد عاد كثيفًا فوق النار فليس في ذلك ما يدعو إلى اليأس والتشاؤم. إذ لا بدّ من يوم تهبّ فيه ريح مؤاتية فتلتهب النار ويبصر كلّ ذي عينين ألسنتها، ويشعر كلّ ذي حسّ بدفئها وبنورها.

ستعمل الأونسكو ما قُسط لها عمله في حقل التعاون الروحيّ والفكريّ بين الأمم، سواء أطال عمرها أم قصر. وإن هي أخفقت في كلّ شيء إلّا في الإشادة بمحاسن التعاون؛ وإلّا في جمعها تحت سقف واحد – ولو مرّة في السنة – نخبة من رجال العلم والفنّ والتربية تمثّل جميع شعوب

الأرض؛ وإلّا في حملها أولئك الرجال على التسليم بعضهم على بعض، وعلى التصافح والتكالم بلغة الفكر والفنّ والعلم، لكان لها من ذلك وحده ما يبرّر وجودها. فكيف بها إذا مدّ الله في عمرها وتسنّى لها أن تخلق للناس لغة يتفاهمون بها أينما كانوا وينقلون إليها الجواهر الفكريّة والأدبيّة التي لا تخلو منها لغة من لغات الأرض؟ ثمّ كيف بها إذا شادت لنا جامعة أو جامعات عالميّة أساتذتها من كلّ قطر وطلّابها من كلّ شعب، يخرجون من بين جدرانها مشبعين بروح الأخوّة البشريّة ويعودون إلى بلادهم رسلًا للتعاون وبناةً لأرض جديدة وإنسانيّة جديدة؟

إلّا أنّني لا أقدّر للأونسكو مثل ذاك النجاح. فستعصف بعد بالإنسانيّة عواصف هوج من التباغض والتنابذ تدكّ أركانها دكًّا. ولعلّ الذين سيبنون على أنقاضها سيكونون أوفر منّا فهمًا لقيمة التعاون. فيذكرون الأونسكو بالخير كما نذكر اليوم أوّل باخرة وأوّل قطار وأوّل سيّارة وأوّل طيّارة. وينظرون إليها نظرنا إلى أوّل قطرة من الغيث – غيث التعاون الميمون والتفاهم المبارك.

روسِيّا التي عَرَفتها

دخلت روسيّا طالبًا عام 1906، وأنا في السابعة عشرة من عمري. وخرجت منها عام 1911 . فما دار في خلدي يوم دخلتها أنّني داخل جوف بركان، ولا يوم تركتها أنّ ذلك البركان سينفجر انفجاره الهائل بعد سبعة أعوام لا أكثر، فيسجّل التاريخ أفول آخر دولة استبداديّة وبزوغ أوّل دولة اشتراكيّة في العالم.

مرّ على مغادرتي بلاد الصقالبة سبعة وثلاثون عامًا، وأنا كلّما ذكرتها فكما يذكر الولد البارّ أباه أو أمّه. أو كما يذكر من سار في فدفد قاحل، عابس، خميلة غنّاء نبتت له بغتة خلف كثيب من الكثبان فتفيّأ ظلالها، وبرّد لظاه بسلسبيلها، ومتّع ناظريه بخضرتها، وتزوّد منها نشاطًا وجمالًا، ثمّ مضى في سبيله.

لقد أحببت روسيّا. أجل، أحببتها «لأوّل نظرة». وما كان حبّي لها نتيجة لعرفان جميل أو لشعور بأنّي مدين لها بما تعلّمته في مدارسها. فقد نسيت، أو تناسيت، جلّ ما علّمتنيه المدارس من روسيّة وغير روسيّة. ولكنّني ما نسيت ولن أنسى بلادًا هي روسيّا وشعبًا هو الشعب الروسيّ. وما أدري أيّ شيء في تلك البلاد صادف أبعد الهوى في نفسي، فكان له مثل فعل السحر في فكري وقلبي وروحي.

من الأكيد أنّ ذلك «الشيء» ما كان أمرًا بسيطًا تسهل الدلالة عليه بإصبع أو ببرهان. بل كان مركّبًا من عناصر كثيرة بعضها حسّي وبعضها معنويّ. ومن أهمّ عناصره الحسيّة ذلك المدى اللامتناهي الذي يجعل المسافر في روسيّا يشعر كما لو كان في بلاد تتاخم الأزل والأبد. وهو غير المدى الذي يحسّه المسافر في الصحراء. فالمدى الصحراويّ، طال أم قصر، مدى جافّ، ساحق، غدّار، جيّاش بالمخاوف والأخيلة المزعجة. إذا انبسط فيه النظر انكمش القلب، أو انطلق فيه الخيال انحبست النفس. في حين أنّ المدى الذي أحسسته في روسيّا، وبالأخص في منطقة «أوكرانيا» حيث كنت أدرس، كان مدى يفيض بالفتنة للعين، وبالأنس للقلب، وبالغواية للخيال. فيه

الحقول السخيّة، والمروج الخضر، والغابات البكر، والأنهر الدفّاقة، والسماوات الرفيقة – لا هي في الصيف صفائح من النحاس المحمّى، ولا هي في الشتاء قباب من الجليد. وأنت إذ تحسّ ذلك المدى السحريّ في بلاد الروس، تحسّ ما يماثله في الشعب الذي استوطن تلك البلاد. اللّهمّ إن تيسّر لك، مثلما تيسّر لي، أن تملك لغته، وأن تقف على تاريخه، وأن تؤاكله وتشاربه، أو كما يقولون في روسيّا، أن «تمالحه وتخابزه» فتفهم مشكلاته، وتتغلغل في نفسيّته، فلا تفوتك معتقداته وخرافاته، وطقوسه وعاداته، ولا تخفى عليك مواطن ضعفه وقوّته. وإذ ذاك فأنت لا تملك نفسك عن حبّه.

لم يمضِ على وجودي في روسيّا غير بضعة أشهر، حتّى فارقني ذلك الشعور الذي يلازم الأجنبيّ في بلاد ليست بلاده – شعور الغريب بين قوم غير قومه. ذاك لأنّ الذين حللت بينهم ما لبثوا أن انتزعوا منّي ذلك الشعور بما في طبيعتهم من لطف وصدق وبساطة وعطف على الغريب. فلا ادّعاء، ولا صلف، ولا خبث، ولا تكتّم... بل قلوب مفتوحة وأكفّ مبسوطة.

ليس الكلام عن أيّ شعب من الشعوب بالأمر السهل مهما يحاول المتكلّم الإنصاف والدّقّة. فما من صفة اتّصف بها شعب كلّه. فهي قد تنطبق على فئة منه دون فئة، فتصدّق هنا ولا تصدّق هنالك. وأنا إذ أكلّمك عن الشعب الروسيّ لا أريدك أن تفهم أنّي أكلّمك عن كلّ روسيّ في روسيّا. بل جلّ ما أستطيعه هو تبيان بعض الصفات العامّة التي خبرتها بنفسي في ذلك الشعب. فإن أنا قلت لك إنّ الشعب الروسيّ شعب صبور، وديع، نقيّ الطويّة، إنسانيّ النزعة، وإنّه إلى ذلك شعب مؤمن وتقيّ، فلستُ أعني أنّ كلّ عامل أو عالم أو تاجر أو سياسيّ في روسيّا هو كذلك.

لقد هالني، في جملة ما هالني، من الشعب الروسيّ وقتئذ أنّه كان مصنّفًا بالتشريع لا بالتقاليد طبقات طبقات. أسفلها طبقة الفلّاحين والعمّال. وأعلاها طبقة الأشراف. وهذه الأخيرة كانت تماشيها في النفوذ طبقة الجنديّة العالية وطبقة الكبار من رجال الدين. وقد كانت طبقة الفلّاحين والعمّال تستهويني وتسحرني على قدر ما كانت الطبقات العليا تثير نفوري واشمئزازي. فما مرّ بي فلّاح ورفع لي قبّعته احترامًا وحياني بقوله: صباحًا سعيدًا يا «بارِنْ» (أي يا سيد) إلّا انقبض قلبي، وانكسر جفني، وصعد دم الخجل إلى وجهي. ولا مررت يومًا من أيام الصيف بحقل انتشر فيه الحاصدون والحاصدات ورأيت أجسامهم تنحني وتستقيم، ووجوههم تستحمّ بالعرق، ثمّ سمعت أصواتهم تتماوج مع الزرع بأغانٍ موقّعة أحسن التوقيع، إلّا تهلّلت روحي، وضحكت عيناي، وباركت نفسي الزرع والزارعين والحصّاد والحاصدين. ولا أبصرتُ عاملًا يحمل عدّة عمله على كتفه، وإذ يمرّ بكنيسة يقف بخشوع ويرسم على وجهه علامة الصليب ويمضي في طريقه، إلّا تخشّعت لخشوعه وأكبرت قلبه العامر بالإيمان.

كنت أشعر أنّ الفلاحين والعمال في روسيّا يحملون على ظهورهم وأكتافهم جميع بطاح روسيّا وجبالها، ويحملون فوقها أوزار طبقتهم وأوزار بقيّة الطبقات. فلا يرزحون ولا يئنّون ولا يندى لهم بالدمع جفن. إنّه لصبر ولا صبر أيّوب. وإنّها لصلابة ولا صلابة الصوّان. وإنّه لإيمان بعدل يأتي ولا إيمان إبراهيم. لا. ما عرفت من كلّ ما عرفت من شعوب الأرض شعبًا يتحمّل المضض والحرمان وشظف العيش بمثل الصلابة والثبات والإيمان التي يتحمّلها بها الفلّاح الروسيّ. ولا عرفت فلّاحًا امتزج بالتربة التي يعمل فيها وشابهها حتّى صار بعضًا منها، إلى حدّ ما امتزج الفلّاح الروسي بتربته وشابهها. فهو قطعة منها. وهو منبسط مثلها. لا خبث فيه ولا التواء. وهو غنيّ بالمواهب المكنونة فيه على قدر ما تربته غنيّة بقوّة الخصب والخيرات الدفينة فيها.

أمّا الطبقة الوسطى في روسيّا – أو ما يدعونه البورجوازيّة – فكانت همزة الوصل بين الطبقات السفلى والعليا، تستمدّ من تلك وهذه. فلا عجب أن تكون فيها محاسن الاثنتين ومساوئهما. ثمّ لا عجب أن تكون أرهف حسًّا من طبقة الأشراف بحاجات الطبقة السفلى وشكاواها وآمالها. وهذه الطبقة البورجوازيّة كانت بمثابة ميزان الحرارة وميزان الطقس في البلاد.

إن خفّ الضغط من أعلى أو من أسفل كانت البورجوازيّة في سكينة وسلام. وإن اشتدّ الضغط وأنذر الجوّ بالعواصف والحرارة بالحمّى، مشت خلف الستائر في البيوت البورجوازيّة همسات ووشوشات. وكانت مؤتمرات وكانت حركات.

لقد كان الضغط على أخفّه بُعَيد الثورة التي عقبت الحرب مع اليابان. ولكن ما لبث أن أخذ يشتدّ رويدًا رويدًا إذ راحت الحكومة القيصريّة تستردّ بقوّة الشرطة الحرّيّات القليلة التي كانت منحتها البلاد. فعاد التذمّر، ولكن خلف الأبواب. وكان على أشدّه بين شبيبة المدارس. ولا بدّ لي من الشهادة بأنّ الشبيبة الروسيّة التي عرفتها كانت شبيبة تؤثر الجدّ على الهزل، والعمل على اللهو، والتفكير المستقلّ على الانجراف مع التيّار. فما أكثر ما كنّا نخوض موضوعات تكسّرت عليها امواج الفلسفة جيلًا بعد جيل. وما أكثر ما كنّا نتجادل في أمور أدبيّة فنأخذ في تحليل هذه الرواية أو تلك لمشاهير الروائيّين من روسيّين وغيرهم، متناولين بالبحث أتفه حوادث الرواية وأجلّها، وأهمّ اشخاصها وأقلّهم أهمّية وفي ساعات اللهو كانت تبرز الآلات الموسيقيّة ما بين قيثار وكمان ومندولين، أو تُرتجل الأجواق الغنائيّة، أو يدور الرقص الكلاسيكيّ والوطنيّ. والروس، وبالأخصّ أهل أوكرانيا، مولعون بالموسيقى، ولهم أغانٍ شعبيّة خلّابة، غنيّة بالألحان والألوان والعواطف، وضروب من الرقص غاية في اتّزان الحركة وسرعتها وخفّتها. وللرقص والغناء الروسيّين شهرة عالميّة.

لا أعني أنّ حياة الشبيبة الروسيّة كانت كلّها حياة جدّ وتفكير وخلق فنيّ، وأنّها كانت طاهرة من الطيش والعبث والمنكرات. وأيّة شبيبة لا تدفع جزية للطيش والعبث والمنكرات؟ ولكنّني أريد

القول إنّ المجاري العميقة في حياة الشبيبة الروسيّة كانت مجاري ترمي إلى أهداف بعيدة.. وأجمل تلك الأهداف وأبعدها، كانت الحرّيّة لوطنهم وللعالم أجمع. فالأدب الروسيّ الذي أدهش العالم بقوّته وصدقه وعمقه ما كان أدبًا روسيًّا لا غير. بل إنّه تخطّى حدود بلاده شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا. فكان أدبًا إنسانيًّا شاملًا. وذلك الأدب هو الحادي الأوّل الذي كانت الشبيبة الروسيّة تصغي إلى حدائة وتسير على هدية.

هذه صورة مصغّرة جدًّا لروسيّا التي عرفتها فأحببتها. وقد أحببتُ منها مداها الحسّيّ والمعنويّ، وأحببتُ شعبها لأنّه شعب إنسانيّ، مثاليّ، ولأنّه شعب مؤمن تقيّ. وما إيمانه غير جانب من مثاليّته. والأدب الروسيّ إن حفل بشيء فبالمثاليّن تتحطّم مثاليّتهم على صخور الواقع القاسية... فلا يقنطون، وعن الكفاح لا يكفّون. وما الثورة الهاصرة التي قام بها الروس في الزمان الأخير إلّا انتفاضة جبّار صبر على الحيف دهرًا فنفد صبره وراح يطلب لنفسه وللعالم إنصافًا وحرّيّةً وسلامًا. أمّا أنّ الثورة حاولت أن ترفع الحيف بالحيف، فذاك شأن الثورات على مرّ الدهور. وهو موطن من مواطن الضعف فيها.

لا شكّ في أنّ الثورة قد بدّلت كثيرًا في حياة روسيا المادّيّة والسياسيّة والاجتماعيّة. حتّى إنّ من عرفها مثلي قبيل الحرب العالميّة الأولى لا يكاد يعرفها بعيد الحرب الثانية. فهي تنتقل انتقالًا خاطفًا من بلاد زراعيّة متأخرة إلى بلاد صناعية من الطراز الحديث. وأنا ما أزال أذكر كيف كنّا لثلاثة عقود خلت إذا تحدّثنا عن الاختراعات والمخترعين في العالم، لا تجد اختراعًا روسيًّا واحدًا نباهي به إلّا «الساموفار»!... أمّا اليوم ففي روسيّا مشروعات كهربائيّة وهندسة ومصانع ضخمة ليس لها نظير في العالم. ويقال إنّ الأمّيّة قد انمحت منها تمامًا...

وإذا صحّ ما نسمعه ونقرؤه عن أن الثورة قد حلّت مشكلة القوميّات والديانات والبطالة حلًّا لا قيام لها بعده، فمن الأكيد أنّها أتت بما يشبه المعجزة. إذ إنّ تلك المشكلات الثلاث ما تزال أعقد مشكلات العالم وأعصاها وأخصبها في إثارة القلق والتنافس والخصام والتباغض بين الناس. وفي اعتقادي أنّ الحكم للثورة أو عليها من هذا القبيل سابق لأوانه. فما هي المرّة الأولى – ولا الأخيرة – ثار فيها شعب على الحيف والفقر والاستبداد ثمّ أفاق من سكرته فإذا به لا يتمتّع بالعدل والبحبوحة والحرّيّة التي كان ينشد. وإذا بالحيف قد تردّى رداءً جديدًا، وبالفقر قد انتقل من الجيب إلى القلب أو من جيب إلى جيب، وإذا بالاستبداد قد وجد له مراعي غير مراعيه القديمة.

تأتي الثورات وتمضي. أمّا الشعوب فتبقى. وتزلزل الأرض زلزالها، فتغيب معالم وتبدو معالم. أمّا التراب فيبقى ترابًا، ويبقى الصخر صخرًا. والألماس لا يتحوّل صوّانًا، ولا الزعرور يصبح سنديانًا.

لُغز المرأة

ليس من الغرابة في شيء أن نرى في المرأة لغزًا يصعب علينا حلّه. ولكنّ الغرابة كلّ الغرابة أن نتكلّم عن المرأة كما لو كانت اللغز الوحيد الذي أشكل علينا حلّه. فكأنّ شقيقها الرجل كتاب مفتوح لا يعوزنا لفهمه إلّا معرفة القراءة البسيطة. وكأنّ كلّ ما عداها من الكائنات ما بين ناطقة وعجماء، وحيّة وجامدة، أمور تافهة يكفينا لفهمها أن نتناولها بحاسّة من حواسّنا الخمس. لعمري إنّ ذلك منتهى السذاجة.

إن تكن المرأة لغزًا فلأنّ الرجل لغز. أو يكن الإنسان بشطريه المؤنّث والمذكّر لغزًا، فلأنّه يعيش في عالم كلّ ما فيه ألغاز. وأيّ شيء في هذه الأكوان ليس لغزًا للإنسان؟ أهي الأرض بشكلها وحجمها ودورانها الأبديّ حول محورها وحول الشمس؟ أم هي نباتات الأرض وحيواناتها ومعادنها على اختلاف أصنافها؟ أم هو جوّ الأرض بما فيه من مجارٍ سرّية للنور والفكر والشعور؟ أهو الزمان وأين يبتدئ وينتهي؟ أم هو الفضاء بكلّ ما فيه من عوالم لا تقع تحت حصر ووصف؟

إنّه ليكفيك كلّما فكّرت في شيء من الأشياء أو حدثٍ من الأحداث أن تسأل نفسك: «لماذا؟» لتعرف أنّك في حضرة لغز من الألغاز. فأنت لا تدري لماذا تكوّنت الأشياء كما هي لا على غير ما هي. ولماذا تحدث الأحداث حينما تحدث، لا قبل ذلك بدقيقة ولا بعده بطرفة عين. وإن أنت خدعت نفسك فتوهّمت أنّك واقف على أسرار جميع الأشياء والأحداث، فأنت بالعبادة أولى منك بمطالعة هذا المقال.

أجل. نحن ألغاز في عالم كلّه ألغاز. وهذه الألغاز قد تشابكت وتداخلت في شكل يتعذّر علينا معه حلّ واحد منها إلّا أن نحلّ ما قبله وما بعده. فكأنّها الأبواب الموصدة. أمّا مفتاحها فواحد. فإن أنت حظيت به فتحت جميع أبواب الكون من أصغرها إلى أكبرها ومن أقربها إلى أبعدها.

والآن قد تسألني عن ذلك المفتاح أين هو؟ فأجيبك بأنّه فيك. وقديمًا قيل «إعرف نفسك» فليس أقرب منك إليك. وليس أدعى إلى دهشتك من نفسك. فحريّ بك أن تبدأ بدرسها وحلّ ألغازها، قبل أن تبدأ بدرس غيرك من الكائنات وتهتمّ بحلّ ألغازها. فهي ما كانت ألغازًا إلّا لأنّك لغز. فمتى اهتديت إلى حلّ اللغز الذي هو أنت، اهتديت إلى مفتاح كلّ لغز سواه. ومعنى ذلك أنّك يوم تعرف نفسك تعرف الكون. وهل في مستطاع الإنسان أن يعرف نفسه؟

ما في ذلك أقلّ الشكّ عندي. أما يذهلك إذ تتأمّل الأكوان من حواليك أن تراك الكائن الأوحد على الأرض، الذي ما انفكّ منذ أن وُجد يسأل نفسه «من أنا؟» فأنت، من بين كلّ الألغاز التي تصابحك وتماسيك في كلّ يوم من حياتك – على الأرض وفوق الأرض – أنت وحدك تفتّش عن مفتاح المعرفة. أمّا الأشجار في غابها، والأسماك في بحارها، والطير في أجوائها، والزحّافات والدبّابات في أجحارها، فما تهتمّ بذلك المفتاح ولا تفتّش عنه. بل إنّها لا تشعر بأنّ هنالك أبوابًا موصدة لا تهنأ لها حياة إلّا بفتحها. أمّا أنت فتشعر، وإذ تشعر تفكّر، وإذ تفكّر تراك مدفوعًا إلى السعي والتفتيش. ولن يهدأ لك بال أو تستقرّ لك حال حتّى تهتدي إلى المفتاح الذي تفتّش عنه.

* * *

أترانا إذ نفتّش عن المعرفة إنّما نفتّش عن عنقاء مُغرب؟

ذاك ما يقول به الذين أجهدهم التفتيش، ولا صبر لهم على الثبات حتّى النهاية. أولئك هم القانطون والمتشائمون والمستهترون والساخرون بكلّ من دأبه التفتيش وإيمانه بالفوز لا حدّ له. أمّا أنا فلست، والحمد لله، من القانطين ولا المتشائمين ولا المستهترين ولا الساخرين. وعندي أنّ الدافع الخفيّ الذي يدفعنا إلى التفتيش، هو الكفيل بوجود ما نفتّش عنه وبالقدرة الكامنة فينا على الوصول إليه.

فمثلما يفتّش الطفل عند ولادته عن ثدي أمّه مدفوعًا بغريزة تكفل له وجود ذلك الثدي، هكذا نفتّش نحن عن المعرفة مدفوعين بغريزة تكفل لنا وجود تلك المعرفة، وتكفل فوق ذلك قدرتنا على بلوغها. أليس أنّ الجوع إلى الخبز كفيل بوجود الخبز، وبوجود أجهزة تقوى على مضغ الخبز وهضمه وتحويله إلى دم ولحم وعضل؟ كذلك قل في الماء والعطش إلى الماء. وكذلك قل في المعرفة والشوق إلى المعرفة. إلّا أنّ الطريق إلى المعرفة لمن يشتاق المعرفة غير طريق الجائع إلى الرغيف والعطشان إلى الماء. وجهاز هضم المعرفة غير جهاز هضم الخبز والماء. فالمعرفة، متى بلغناها، كانت لنا غذاء أبديًّا يغنينا عن كلّ غذاء سواه. فلا غرو أن يستغرق التفتيش عنها أدهارًا لا اعمارًا ولا أجيالًا. وهي لا تنفتح لجميع الناس دفعة واحدة، بل لأفراد بعد أفراد. ذاك لأنّ الناس لا يشتاقونها ويفتّشون عنها بدرجة واحدة. والفرق ما بين شوق إنسان وإنسان إلى المعرفة،

من حيث الحرارة والمدى، كالفرق ما بين أتّون مستعر وركام من الجليد، وكالفرق ما بين إعصار هاصر ونفَس تطلقه من صدرك.

ولنرجع الآن إلى المرأة. إنّها لغز وأيّ لغز، ولكنّه لغز إذا أشكل علينا حلّه اليوم فلن يشكل إلى الأبد. وبالأخصّ على الذين لا يقفون في نظرهم إلى المرأة عند مظاهرها الخارجيّة ووظائفها الجسديّة. فهي عند هؤلاء أكثر من أنثى، وأكثر من مستودع للبذار البشريّ . وفتنتها ليست بما يتأجّج في لحمها ودمها من شهوات متضاربة، بل بما يجيش في كيانها من الشوق إلى الهناءة والسعادة والحظوة بحياة لا تنهزم من أمام الموت بانهزام اللحم والدم. وهذه كلّها لا تكون بغير المعرفة – معرفة النفس التي تفتح الباب لمعرفة كلّ شيء. فغاية المرأة من وجودها هي غاية الرجل عين بعين. ولكنّها غاية يتعذّر على المرأة إدراكها بغير الرجل، وعلى الرجل بغير المرأة. وفي ذلك كنه اللغز الذي هو الإنسان.

وما هو الإنسان؟

أيجوز أن ندعو الرجل إنسانًا، وهو لولا المرأة لما كان رجلًا؟ أو أن ندعو المرأة إنسانًا، وهي لولا الرجل لما كانت امرأة؟

إنّما المرأة نصف إنسان. وإنّما الرجل نصف إنسان. أمّا الإنسان الكامل فلا يكون إلّا بالاثنين متّحدين. وإذنْ كان من العبث أن نتكلّم عن لغز هو المرأة من غير أن نتكلّم في الوقت عينه عن لغز هو الرجل. وكان من الجهل المطبق أن نحاول حلّ اللغز الذي هو الإنسان بحلّ نصفه الواحد دون الآخر.

إنّ في انشطار الإنسان وما دونه من الكائنات الحيّة إلى شطرين، أحدهما ذكر والآخر أنثى، لحكمة تفوق حدّ التصوّر. فالكائن الفرد من نوعه لا نصيب له من الحياة إلّا الجمود. فلا وعي، ولا سعي، ولا شهوة، ولا هدف، ولا إرادة. ولا أمل له بالمعرفة، إذ ليس في الكائنات ما يشبهه فيكون له محكًّا وحافزًا، ويكون له مرآة يبصر فيها نفسه فيتأمّلها ويدرسها. وهو إذ ذاك أشبه ما يكون بسلك مشحون بالكهرباء السلبيّة أو الإيجابيّة. فلا هو نور ولا هو ظلام، ولا هو حرارة ولا هو برودة.

كذلك كان آدم قبل أن تكون له حوّاء، أي قبل أن يصبح ذكرًا وأنثى. أمّا بعد أن انشطر شطرين، فقد راح كلّ شطر يفتّش عن الآخر ليكتمل به. فكان احتكاك، وكان نور، وكانت حرارة، وكان سعي، وكان وعي، وكانت شهوة، وكان فكر، وكان هدف، وكانت إرادة، وكان شوق وحنين إلى المعرفة، فإلى الغلبة على الموت، فإلى الإكتمال.

تلك خاطرة ألقي بها إلى الكتّاب والشّعراء الذين لا يحلو لهم شيء مثلما يحلو لهم التحدّث عن المرأة وألغازها. فهي عندهم الشيطان وهي الملاك. وهي باب التهلكة ومعين الإلهام. وهي الحمامة

الوديعة والحيّة الرقطاء. وهي مصدر اللّذة وينبوع الألم. وهي التي تحبّ وما لحبّها ثبات. وتكره وما لكرهها آخر. دموعها بسمات، وبسماتها دموع. وهي التي لا حياة للرجل معها ولا حياة له بدونها. ذاك هرف وافتراء وهراء. فالمرأة في كلّ ما تعمل وتشتهي وتفكّر إنّما تفتّش عن ذاتها في شطرها الآخر الذي هو الرجل. وما يقال في المرأة يقال في الرجل. فالاثنان يسعيان أبدًا، عن وعي وعن غير وعي، إلى المعرفة التي يستحيل أن تتمّ للواحد بدون الآخر. وكلّ ما يصدر عن كليهما من أفكار ومشاعر وأعمال تجاه رفيقه وتجاه الكائنات، شبيه كلّ الشبه بحركات من يتحسّس طريقه في الظلام. فآنًا يظنّه وجد الطريق فيطرب. وآونة يراه ضلّه فيضطرب. ولكنّه لا ينثني عن المشي والتفتيش لأنّه يؤمن بوجود الطريق وبانبلاج الفجر من كبد الظلام.

أمّا تجديد النسل الذي يبدو لنا كما لو كان الغاية الأولى والأخيرة من وجود المرأة، فليس أكثر من حافز قويّ للرجل والمرأة معًا في تفتيشهما عن المعرفة. وأيّ معنى لنسل يتجدّد جيلًا بعد جيل لا لغاية «إلّا ليأكل ويشرب»، ويسعد ويشقى، ويغدو في النهاية طعامًا للدود؟ إلّا انّ للنسل معنى أبعد من ذلك بكثير. فهو الرباط الوثيق الذي ربطت به الطبيعة الرجل والمرأة كيلا يغرب عن بالها أنّهما شطران متساويان لكائن واحد هو الإنسان. وهو القنطرة التي تصل الأعمار بالأعمار كيما يكون للإنسان متّسع من الزمان للوصول إلى المعرفة التي يستحيل عليه الوصول إليها في عمر واحد.

إنّما النسل هو المصهر الحسّي للرجل والمرأة بالسواء. ففي النسل يتلاقى شطرا الإنسان فيتعارفان ويتّحدان. وفي النسل ينسى الذكر أنّه ذكر، والأنثى أنّها أنثى. فيصبح الأوّل والدًا وتصبح الثانية والدة. وفي قولنا «والد» و«والدة» من جميل المعاني ونبيل المشاعر ما لا أثر له في قولنا «ذكر» و«أنثى»، أو في قولنا «رجل» و«امرأة». والوالد والوالدة يسبغان على النسل أشرف ما فيهما من العطف والحنان والمحبّة، وذلك بغير حساب. فكأنّ الولد هو المفتاح الذي به تنفتح للوالدين خزائن الكنوز الربّانيّة التي أودعتها الطبيعة كيانهما المشترك. وأندرها وأثمنها المحبّة.

أقول «المحبّة» ولا أقول «الحبّ» إذ إنّني أشتمّ في الكلمة الأولى أريج الألوهة المنزّهة عن اللحم والدم. وأمّا الثانية فتفوح منها روائح الغرائز الحيوانيّة التي ليست سوى الممهّد إلى المحبّة المتسامية عن كلّ شوق غير شوق الفناء في من تحبّ. وهذه المحبّة هي المصهر الروحيّ للرجل والمرأة. وفي اعتقادي أنّ الرجل والمرأة سيبقى واحدهما لغزًا للآخر، ما داما في قبضة اللحم والدم. أمّا متى انصهرا بنار المحبّة الصافية وفني واحدهما في الآخر، فهما إذ ذاك إنسان واحد قابض بيمناه على الأزل وبيسراه على الأبد. وعارف بكلّ ما كان وما سيكون. فلا هو لغز لنفسه، ولا أبواب في الأرض والسماء موصدة دون إرادته وفهمه.

مدرسة الجميع

لو سألتم أيّ طالب في أيّة مدرسة: «من هم معلّموك؟» لأجابكم على الفور وبدون أقلّ تردّد: هم فلان وفلان وفلان. ولكان جوابه بعضًا من الحقيقة لا كلّها. أمّا الحقيقة الكاملة فهي أنّ معلّميه أكثر من أن تستوعبهم ذاكرة أو أن يحصيهم عدّ. فما قوله في الذين علّموا معلّميه وصنّفوا كتبه المدرسيّة؟

ما قوله في الذين رادوا الأرض من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب ومن القطب حتّى القطب، فقاسوا أبعادها، وسبروا أغوارها، وحدّدوا بحارها وأنهارها، ودرسوا أحوال سكّانها وأحوال جوّها، فكان له علم الجغرافيّة؟

ما قوله في الذين رسموا له خريطة الجلَد بما فيه من شموس وأقمار وكواكب، وبما لهذه من سبل وأحجام، فكان له علم الفلك؟ والذين أحصوا نبات الأرض وحيوانها، واستقصوا أخبار ذاك وهذا، فكان له علم النبات وعلم الحيوان؟

ما قوله في الذين أنفقوا أعمارهم منذ فجر التاريخ حتّى اليوم في الدرس والتنقيب والتمحيص والمقارنة والاستنتاج والتبويب والتنظيم فكانت له سائر العلوم والفنون التي لولاها لما كانت حضارة ولا كانت مدارس؟

ثمّ ما قوله في أبويه وإخوته ورفاقه وكلّ من عرفهم من بني البشر؟

وأخيرًا ما قوله في كلّ ما يقع تحت حواسّه من مظاهر الطبيعة في النهار وفي الليل – في اليقظة وفي المنام؟ – أليس كلّ هؤلاء معلّميه كذلك؟

إنّ ما ندرسه في الكتب على أيدي أناس ندعوهم معلّمين وفي بيوت ندعوها مدارس لشيء ضئيل – وضئيل جدًّا – إذا هو قيس بما ندرسه من غير كتب ومن غير معلّمين أو مدارس، فالكتاب مهما طال، ومهما بلغ من قوّة التعبير ودقّة العرض وأناقة الترتيب وجودة التبويب لا يتعدّى كونه كتابًا تحتويه دفّتان. فلا بدّ له من فاتحة وخاتمة. ولا بدّ له من أن يمثّل رأي إنسان

واحد، أو رأي جمهور من الناس. ونحن قد نقرأ فيه ساعة أو ساعات فنملّه، وقد يستهوينا فنعود إليه مرّة بعد مرّة. ولكنّنا لن نقرأه في كلّ ساعة من كلّ يوم، ولا في كلّ ثانية من كلّ ساعة.

والمعلّم مهما يكن نصيبه وافرًا من علمه، ومهما يكن شعوره عميقًا بقدسيّة المسؤوليّة المشدودة بعنقه، لا يعدو كونه بشرًا من لحم ودم. فهو عرضة للسهو والضجر، والغضب والمحاباة، والتعصّب والخطأ. فما يثق الطالب أنّ ما يستفيده من معلّمه هو علم صافٍ من ينبوع لا يشوبه عكر.

والمدرسة مهما يكن نظامها من العدل والاحكام، ومساقها من الدقّة وحسن الاختيار، لا تخرج عن كونها معهدًا غايته محدودة بزمان ومكان، وإدارته موكولة إلى بشر تتلاعب بهم الأهواء البشريّة من طمع في الكسب، أو طمع في المجد، أو طمع في تنفيذ مآرب خفيّة لا تنتمي إلى الدرس والتهذيب بصلة.

أمّا الكتاب الذي دفّته الواحدة الأزل والأخرى الأبد، والذي اختلطت علينا فاتحته وخاتمته، فكلّ فصل من فصوله فاتحة وكلّ فصل خاتمة، والذي نقرأ فيه منذ أن نولد حتّى نموت فلا نطويه ساعة ولا ننساه لحظة، والذي لا يمثّل رأي إنسان واحد ولا رأي كلّ الناس، بل يمثّل الحقيقة التي تتسامى فوق الظنون والآراء والتكهّنات – أمّا ذلك الكتاب فهو الطبيعة.

وأمّا المعلّم الذي وعى سائر العلوم والفنون، وسائر الأخبار والأسرار، والذي لا يأخذه غضب أو ضجر، ولا تعصّب أو محاباة، والذي لا يعكّر صفاء ذهنه سهو ولا خطأ – أمّا ذلك المعلّم فهو الطبيعة.

وأمّا المدرسة التي لا تحصرها سقوف وجدران، والتي برامجها منسّقة تنسيقًا يفوق تصوّر الإنسان، والتي مدّة الدراسة فيها تمتدّ ما امتدّ الزمان، والتي تديرها حكمة تتحدّى العقل والوجدان – أمّا تلك المدرسة فهي الطبيعة كذلك.

أجل. هي الطبيعة أمّنا الرؤوم. منها لحومنا وعظامنا. ومنها أنفاسنا وأنباضنا. ومنها غذاؤنا وكساؤنا ومأوانا. ومنها مهودنا ولحودنا. تبارك من سوّاها فجعلها لنا كتابًا ومدرسةً ومعلّمًا، ثمّ أعطانا مقدرة النطق والتمييز، ولقّننا الهجاء فكان في استطاعتنا أن نقرأ في كتابها قراءة لا انقطاع فيها ولا فتور، ولا ملل ولا سأم. وكتاب الطبيعة كتاب عجيب ما لصفحاته عدّ ولا لصوره ومواده حصر. وهو مفتوح أبدًا لكلّ ذي حسّ وإدراك. بل إنّنا لو شئنا أن نطويه وأن نحجب أبصارنا وباقي حواسّنا عنه لما وجدنا إلى ذلك سبيلًا. وإن نحن أعرضنا بأبصارنا وأفكارنا عن القبّة الزرقاء وكلّ ما فيها من عوالم شاسعات فكيف نعرض عن الأرض بسهولها وجبالها، وأنهارها وبحارها، ونباتها وحيوانها، وأهويتها وفصولها؟ ثمّ كيف نعرض عن جسومنا بما فيها من بديع

التركيب ومن شتّى الحاجات والشهوات؟ وجسومنا بعض من الطبيعة. فهي صفحات مشرقة في كتابها المشرق العجيب.

لا. ليس في مستطاع أيّ إنسان أن يطوي كتاب الطبيعة ولو لمحة واحدة من حياته. مثلما ليس في مستطاعه أن يخرج ولو لمحة واحدة من مدرسة الطبيعة. فالطبيعة مدرسة لا بطالة فيها ولا تعطيل. بل دروس متلاحقة تلاحق الفصول بالفصول ومتواصلة تواصل الثواني بالثواني. ولو أنّ الناس كانوا سواسية من حيث انكبابهم على الدرس، ومن حيث مقدرتهم على تفهّم ما يدرسون، لكان من حقّكم أن تعجبوا لهم كيف أنّهم ما برحوا منذ آلاف السنين يدرسون في مدرسة الطبيعة دونما انقطاع وحتّى اليوم ما اجتازوا الامتحان الأخير ولا ظفروا بالشهادة النهائيّة. إلّا أنّ الناس من هذا القبيل أصناف وأصناف. منهم المجتهد ومنهم الكسول. ومنهم الفهيم ومنهم الجهول. والقليل القليل ما بينهم هم الذين يتعشّقون الطبيعة فيدرسون في كتابها وأفئدتهم تذوب شوقًا إلى فهم ما يدرسون. أمّا سواد الناس فيحملقون في كتاب الطبيعة بأبصارهم وهم بقلوبهم وأفكارهم بعيدون عمّا يبصرون فقد صحّ فيهم قول السيّد المسيح: «لهم عيون ولا يبصرون، ولهم آذان ولا يسمعون».

إنّ حال الأكثريّة الساحقة مع الطبيعة هي حال ولد أعطيته كتابًا صفحاته مليئة بشتّى الرسوم. فأشكال عجيبة غريبة، وألوان بديعة خلّابة، وطباعة هي الغاية في الإتقان والأناقة، ومن منكم لا يستطيع أن يتخيّل الحماسة، بل اللجاجة، بل الشراهة التي يُقبل بها ذلك الولد على صفحات الكتاب يقلّبها فلا يروي ناظريه من تفاصيلها وتقاطيعها وألوانها الفتّانة؟

ويمضي الولد كذلك في يومه الأوّل فيأتي على الكتاب من الدفّة إلى الدفّة مرّات عديدة لا مرّة واحدة. وفي كلّ مرّة تفتر حماسته وتخفّ لجاجته وتقلّ شراهته عن ذي قبل. ويعود إليه في اليوم الثاني، وفي الثالث والرابع. فكلّما تمادى عهده بالكتاب زاد شعوره بأنّه قد وعى جلّ ما فيه إن لم يكن كلّه. وهو شعور كاذب خدّاع. إذ ليس يكفينا لمعرفة الأشياء أن نحفظ أسماءها ونستوعب أشكالها وألوانها. بل لا بدّ من تتبّع مجاري الحياة فيها ومن فهم غايتها من الوجود وغاية الوجود منها.

وهكذا ينتهي الولد بأن يصبح ذلك الكتاب البديع شيئًا مألوفًا عنده وتافهًا في نظره. وإذا هو عاد إليه فبغير ما حماسة أو لهفة. ولا يندر أن يأخذ قلمه الرصاص ويمضي يشوّه رسومه أو يمزّق بعض صفحاته ليصنع منها طيّارة يطلقها مع الريح مشدودة بخيط في يده.

كذلك حال الناس مع الطبيعة. فهم يطلّون عليها أوّل ما يطلّون بأبصار مسحورة وألباب مفتونة. فلا يلبثون أن يألفوها على التمادي. فإذا بها لا فتنة ولا سحر. فالشمس خزّان لتوليد الحرارة والنور، والقمر والنجوم سُرج معلقة في الفضاء للسائرين في الليل وللمدلّهين والمتيّمين. والبحار

معابر للناس وللأمتعة ما بين برّ وبرّ، والأشجار أشياء لا قيمة لها إلّا بأخشابها وثمارها وظلالها. والطير والحيوان كائنات يُنتفع بلحومها وريشها وجلودها أو يُدرأ خطرها بالسمّ والبارود.

هكذا تتحوّل الطبيعة في أعين الناس من مدرسة شاملة وكتاب عجيب ومعلّم لا مثيل له بين المعلّمين إلى مخزن هائل يتهافتون على ما فيه من متعة للبطن وسلوى للعين والأذن غير آبهين لما فيه من غذاء للفكر والخيال والوجدان وغير حاسبين حسابًا إلّا لساعة هم فيها وإلّا لحاجة ملحاحة من حاجات اللحم والدم. والأفظع من ذلك أنّ الكثير منهم يعبثون بما في مخزن الطبيعة من تحف غالية كما يعبث الولد بكتاب نفيس. فيقتلون جميل الطير والحيوان لا لأنّهم جياع بل لمجرّد التسلية أو «الترويح عن النفس». ويتلفون بديع النبات لا لأنّهم في حاجة إلى حطب أو خشب بل لأنّه يلذّ لهم أن يعبثوا بالجمال وأقداسه كما تعبث الخنازير بحديقة من الأزهار سواء بسواء.

لكم رأيت بعيني صغارًا وكبارًا يمرّون بشجيرة مغروسة على جانب الطريق فيقصفونها ويطرحونها أرضًا ويمضون في سبيلهم غير مبالين بنضارتها وجمالها ولا بأنّها – لو هم أبقوا على حياتها – ستصبح يومًا من الأيّام متعة لأبصارهم وأبصار غيرهم من الناس ومظلّة يتظلّلها المتعبون من عابري السبيل. ولكم شاهدت رجالًا من ذوي العلم والمكانة يترصّدون عصفورًا يغرّد على فنن كما يترصّد الهرّ الفأرةَ، فلا يتورّعون عن إردائه بخردقة من بندقيّة. وقد يُجرح ذلك العصفور ولا يُقتل فيحاول النجاة بما تبقّى فيه من حياة. ولكن الصيّاد يركض في إثره ويتعقّبه من ملجإٍ إلى ملجإٍ حتّى إذا ظفر به استلّ سكّينه وذبحه من الوريد إلى الوريد وقد شاع في وجهه البِشر وأبرقت عيناه بريق النصر والاعتزاز بالقوّة!.. وقد يكون العصفور الذبيح أبًا أو أمًّا لفراخٍ ما تزال في العشّ زغب الحواصل. فلا ينغّص ذلك ولا مثقال ذرّة من لذّة الصيّاد إذ يجلس وأصحابه إلى مائدة الشراب ليتلمّظ بلحم طريدته وعظمها.

ألا خزيًا لتلميذ يمزّق الكتاب المعدّ لتنويره وتهذيبه وإسعاده، وألف خزي لتلميذ يتلمّظ بلحم معلّمه وعظمه.

متى يدرك الناس أنّ الطبيعة هي الجسد المنظور، للإله الذي لا ينظر، وأنّ الله إذا ما أباح لنا جسده الطاهر قوتًا وكساءً ومأوى لأجسادنا فما أباح لنا العبث به؟ ولا هو أباحه لنا إلّا لننفذ منه إلى روحه القدّوس السرمديّ. ولا هو زيّنه بالجمال إلّا ليدلّنا على جمال القدرة التي تجَلبَبت به.

كتاب عجيب هي الطبيعة، ولكن للذين يحسنون القراءة فيه ويفهمون ما يقرأون... ومدرسة شاملة هي الطبيعة، ولكن للذين شوقهم إلى الدرس والمعرفة يفوق بكثير شوقهم إلى ملذّات اللحم والدم. ومعلّم فوق كلّ المعلّمين هي الطبيعة، ولكن لقوم يسمعون بأكثر من آذانهم، ويبصرون بأكثر من عيونهم، ويشمّون بأكثر من أنوفهم. هؤلاء هنيئًا لهم ما يشتاقون ويقرأون، وما يبصرون ويسمعون، وما يشمّون ويتذوّقون.

المخدّرات المعنويّة

قلّما يخطر لنا ببال عندما نتحدّث عن المخدّرات كالأفيون والكوكايين والحشيش وغيرها أنّ التخدير سنّة تتمشّى عليها الطبيعة في تصريف شؤون الكائنات الحيّة، وأنّها تمارسه بشتّى الأساليب. فمن المعروف عن بعض الحشرات والحيوانات أنّها تخدّر فريستها بلسعة أو بنظرة أو بصوت أو بحركة. وليس خفيًّا أنّ الإنسان يملك القدرة على تخدير الإنسان بقوّة الفكر والنظر والحركة والكلمة.

من أبرع أساليب التخدير وأدهاها عند الطبيعة النوم. فما إن يرين النعاس على الأجفان حتّى يتعطّل البصر، ومع البصر السمع والشمّ واللمس والذوق، وبالتالي الوعي والشعور بالذات وبالكائنات المحسوسة من حولنا. وإذا بنا ننتقل في طرفة عين من حال إلى حال ومن عالم إلى عالم. وهل أدعى إلى الدهشة والتأمّل من جماعة يتسامرون وبينهم المريض والصحيح، والفقير والغنيّ، والسيّد والعبد، فإذا سطا عليهم النوم فكّهم من رباط يشدّهم بعضهم إلى بعض، فباتوا، وهم أحياء، شبيهين بأشلاء تتنفّس ولا من صلة تربط أذن الواحد بلسان الآخر، أو عينه بعينه، أو فكره بفكره! وقد تنقلب أوضاعهم في المنام رأسًا على عقب، فيرى المريض نفسه صحيحًا والصحيح مريضًا، ويصبح السيّد عبدًا والعبد سيّدًا، ويغتني الفقير ويفتقر الغنيّ. كلّ ذلك وهم، في الظاهر، عين الجماعة الذين كانوا منذ لحظات قليلات يتجاذبون أطراف الحديث شاعرين أدقّ الشعور بالفوارق الجسديّة والفكريّة والاجتماعيّة فيما بينهم. لقد عبث النوم بأوجاعهم وأوضاعهم وبمشاعرهم وأفكارهم. فهم هم. ولكنّهم غير ما هم. لعمري إنّه السحر بعينه. والسحر الذي لا يدانيه أيّ سحر بشريّ.

إن يكن النوم من أبرع المخدّرات وأدهاها في صيدليّة الطبيعة، فأبرعها وأدهاها على الإطلاق هو الموت. ووجه الشبه بين النوم والموت قريب إلى حدّ أن يحملنا على الجزم بأنّهما من عنصر واحد. وما الفرق إلّا في مدى التخدير من حيث طوله وقصره. فنحن إذ نتخدّر بالنوم نعود فنصحو

منه بعد ساعات على نهار جديد. وما أدرانا أنّنا إذ نتخدّر بالموت لا نعود فنصحو منه بعد سنين على حياة جديدة؟

ولعلّ من قال: «النوم موتٌ قصير والموت نومٌ طويل»، كان من الحقيقة في الصميم. أمّا أنّ الموت يلازمه تفكّك وانحلال في الخلايا التي تتكوّن منها الأجساد فليس في ذلك ما ينفي أنّ الحياة التي سكنت تلك الخلايا ردحًا من الزمن لا تستطيع الرجوع إلى خلايا مماثلة ردحًا آخر من الزمن.

ليس من ينكر أنّ الطبيعة رفيقة وحكيمة إلى أبعد درجات الرفق والحكمة عندما تفرض علينا النوم فرضًا. فهي إذ تلفّنا بغيبوبة النوم لا تعطّل فينا الحياة بل تعطّل أعصابنا وأفكارنا ومشاعرنا عن المضيّ في ما كان يجهدها ويرهقها في حالة اليقظة كي تستفيق وقد استردّت توازنها وقواها ومضاءها لاستئناف أعمالها. فكيف نقول في تلك الطبيعة عينها إنّها فقدت رشدها وحكمتها وانقلب رفقها شراسة وحلمها جنونًا إذا هي لفّتنا بغيبوبة الموت؟ ثمّ كيف نقول إنّها عطّلت الحياة فينا؟ وهل للحياة أن تُعطّل الحياة؟

لعمري إنّها الحكمة التي ما بعدها حكمة أن تكون الحياة وقفة فوثبة – سكرة فصحوة – هجعة فيقظة – ولادة فموتًا – نموًّا فانحلالًا. وهل من يستطيع أن يصوّر لنفسه عالمًا كلّه حركة بغير سكون، ويقظة بغير هجوع، وولادة بغير موت، ونموّ بغير انحلال؟ إذن لكان في مستطاع نبتة واحدة من الفطر أو اليقطين، وفي مستطاع برغوث أو برغشة، أن تملأ الأرض والسماء في خلال قرون معدودات، ولما كان لباقي الكائنات من مجال للوجود.

أم هنالك من يستطيع أن يتخيّل فكرًا يدأب بغير انقطاع وعلى مدى العمر – إن لم نقل مدى الزمان – وراء غاية واحدة؟ أم شهوة مشبوبة تتلظّى منذ الولادة حتّى الموت فلا يخمد أوارها لحظة من العمر؟

لذلك كان التخدير حكمة تفوق حدّ التصوّر. فالاستمرار في عمل واحد، أو في حركة واحدة، أو فكر واحد، أو رغبة واحدة استمرارًا لا نهاية له ولا انقطاع فيه أمر يفوق طاقة الإنسان والحيوان والنبات. ومن ثمّ فهو لا يؤدّي بالكائنات إلى معرفة الحياة من كلّ وجوهها معرفة كاملة صافية. ونحن لولا أملنا بمثل تلك المعرفة لما كان من مسوّغ لوجودنا.

كأنّي بالحياة تجرّعنا المعرفة جرعة جرعة، مثلما تعلّمنا المشي خطوة خطوة والنطق حرفًا حرفًا. ثمّ تجعل لنا بين الجرعة والجرعة فترة استراحة أو تخدير تمكّننا من «هضم» ما جرعناه، على حدّ ما تفعل بنا بعد كلّ وجبة من الطعام وبعد كلّ فكر وشهوة وعمل. فنحن إذ نأكل ونشرب لا نقضي على شهوة الأكل والشرب فينا، ولكنّنا نخدّرها إلى حين، ثمّ هي لا تلبث أن تستفيق. كذلك هي حالنا مع سائر شهواتنا مهما يكن نوعها. فما اللذات نجنيها ما بين حسّية ومعنويّة غير مخدّرات للشهوات المصوّبة إليها. وعلى عكسها الآلام بأنواعها. فهي منبّهات لا مخدّرات. فنحن

إذ نستسلم للأحلام الزاهيات والآمال العذاب إنّما نخدّر رغباتنا في الوصول توًّا إلى ما نحلم به ونؤمله. ونحن إذ تنهشنا الخيبة وتمشي في دمائنا مرارة الفشل إنّما نتنبّه إلى أنّ رغبة من رغباتنا لم تتحقّق. فعلينا أن نوقظ قوانا من غفلتها وأن نعيد تنظيمها وتدريبها لنسلك إلى غايتنا طريقًا غير الذي سلكناه.

ليس بمجدٍ في حربنا مع الألم أن نجرع الكثير من مخدّرات اللذّة. فالمخدّرات المعنويّة، كالمخدرات الحسّيّة، تتحوّل سُمًّا زعافًا إذا هي استعملت لغير غاياتها وبأكثر من مقاديرها. أمّا الوسيلة الوحيدة للتغلّب على الألم فهي انتزاع الشهوة بجذورها من القلب كيما ينعتق القلب من ضرورة تخديرها وتنبيهها والامتثال لسلطانها. وتلك هي رسالة الدين. وهي رسالة يتعذّر فهمها والعمل بها إلّا على القلوب التي توحّدت شهواتها في شهوة واحدة: شهوة الحرّيّة المطلقة التي لا تكون بغير المعرفة المطلقة. ولا تتوحّد الشهوات إلّا في القلوب التي خبرت المخدّرات والمنبّهات خبرة طويلة واسعة فأدركت أنّ الحياة إذ تخدّر القاصرين من أبنائها رأفة بقصورهم لا تخدر ذاتها. وإذ تنبّههم لا تنبّه ذاتها. فهي فوق التخدير والتنبيه، وفوق الخير والشرّ، وفوق كلّ أصناف المتناقضات.

أمّا القلوب التي ما تزال على درجات متفاوتة من سلّم النسبة ما بين الخير والشرّ، والمعرفة والجهل، والحرّيّة والعبوديّة، فقلوب لا بدّ لها من جرعات متفاوتة من المخدّرات والمنبّهات، وعلى مدى من الزمان طويل. ومن هذه المخدّرات العدل، والمساواة، والإخاء، والحرّيّة وما إليها. تقابلها من الجهة الثانية منبّهات هي الظلم، والمحاباة، والضغينة، والعبوديّة وأمثالها.

يختصم اثنان في أمر من الأمور فيهرولان إلى المحكمة. وبعد مناورات ومخاصمات قد تدوم عامًا أو أعوامًا تلفظ المحكمة حكمها. فيقول الواحد: لقد عاد العدل إلى نصابه. ويقول الآخر: لقد طاش العدل من نصابه، ومعنى ذلك أن شهوة العدل قد تخدّرت عند الأوّل إلى حين، وتنبّهت عند الثاني إلى حين. وأمّا العدل المطلق فلا المحكمة أبصرت وجهه ولا المتخاصمان. وذلك العدل لو عرفه الناس يومًا لباتوا في غنى عن المحاكم وعن المحامين والقوانين.

ويثور شعب محكوم على شعب حاكم. فإذا حالفه النصر تخدّر بخمرته وقال معتزًّا بقدرته: «لقد استرددت حرّيّتي. وأنا اليوم حرّ أحكم ذاتي بذاتي». فلا يلبث أن يفيق من سكرته، وإذا بالسلاسل التي توهّم أنّه حطّمها ما تزال تكبّل يديه ورجليه. فما تبدّل منها غير معادنها، وغير أشكالها وألوانها. فهو مقود لا قائد، وزمامه في غير يده. وهو يحارب اليوم، كما كان يحارب في الأمس، على ألف جبهة وجبهة. لقد تغيّر القوّاد. أمّا الحرب فهي هي: حرب الإنسان مع الإنسان في سبيل السلطة والمتعة والعزّة والكرامة. ثمّ حربه مع الطبيعة في سبيل القوت والكساء والمأوى والإبقاء على رمق الحياة أطول مدى مستطاع، وفي سبيل السيطرة عليها سيطرة مطلقة كاملة. ونحن لا تتمّ

لنا السيطرة على شيء من الأشياء إلّا بمعرفة ذلك الشيء معرفة كاملة. فالإنسان سيّد ما يعرف وعبد ما يجهل. والذي نجهله من أنفسنا ومن الكون أكثر ممّا نعرفه بما لا يقاس. وإذن كان لا بدّ لنا – للانعتاق من سلطة الطبيعة – أن نعرف كلّ ما فيها من منظور وغير منظور. فأحرِ بنا أن نبدأ بهذا الكائن العجيب الذي يودّ أن يعرف، ويودّ أن يتحرّر. حتّى إذا عرفناه معرفة كاملة سيطرنا عليه. وكان لنا في معرفته وفي السيطرة عليه المفتاح لمعرفة الطبيعة والسيطرة عليها. وهو المفتاح إلى الحرّيّة.

ليس حرًّا مَن قِيادُه ومَن حياتُه في يدٍ غير يده، سواء أكانت يد إله أم يد شيطان. ومن ذا الذي يقول اليوم إنّ قياد الإنسان وحياته في يده؟ لذلك كان حديثنا عن الحرّيّة كما لو كانت نعمة يتمتّع بها بعض الشعوب دون بعض، وبعض الناس دون باقي الناس، حديث خرافة. وما اعتقادنا أنّ الحرّيّة تؤخذ وتعطى، وتسلب وتستردّ، أو تباع وتشترى بالمال والرجال، وبالدمع والدم، سوى ضرب من التخدير الوقتيّ لشهوة الحرّيّة التي، عن غير وعي منّا، تدفعنا أبدًا إلى التفتيش عنها بكلّ وسيلة وفي كلّ صوب، وتحبّب إلينا البقاء بما فيه من كفاح وألم وخيبة وموت. ولكنّه تخدير حكيم، وتخدير لا بدّ منه. فلولاه لانقطع حبل الأمل، ولانقطع بانقطاعه حبل الحياة.

الحرّيّة هي الهدف الأسمى والأخير لكلّ الكائنات، وفي طليعتها الإنسان. من تذوّقها يومًا فقد تذوّق الألوهة. والألوهة تعني معرفة كلّ شيء والقدرة على كلّ شيء. فهي الحرّيّة المطلقة التي نصبو إليها بكلّ ما فينا من قوّة الحياة والتي نتخدّر من حين إلى حين بنسمة من نسماتها. ولكنّنا لا نلبث أن نستفيق من تخديرنا لنعود فنطلبها كاملة مطلقة. فجميل بنا أن نتعشّقها، وأن نتغنّى بجمالها. وأن نفتّش عنها في قلوبنا. وليس جميلًا أن ننحدر بها من أعاليها إلى أسواق السياسة والنخاسة، ولا أن نطلبها من نصال الرماح وشفار السيوف، أو أن نزجّها في أجواف المدافع والدبّابات. فهي إذا تأصّلت في القلب كانت السلاح الذي لا يفلّه سلاح، والقوّة التي لا تقهرها قوّة.

لبنان

لبنان – ذلك الجبل الأبيض – ما أعجز لساني وقلمي، بل ما أعجز أيّ لسان وقلم، عن وصف مفاتنه! كلّما تحسّست سحره أو حدّثت عن جماله ألفيتني أستعين أفعل التفضيل وصيغة المبالغة. حتّى بتّ أخشى أن يتّهمني البعض بذلك النوع من «الهستريا» الذي يلازم في الغالب كلّ موبوء بوباء الوطنيّة الجامحة وعهدي بنفسي أنّني طهّرتها من زمان من جراثيم ذلك الوباء الخبيث. فهي لا تكتفي بلبنان ولا بالأرض موطنًا. ولا تقنع بأقلّ من الكون مسرحًا لعواطفها وتأمّلاتها وأحلامها.

لا... ما أحببت لبنان لأنّه مسقط رأسي ورؤوس أجدادي وأجداد أجدادي. بل لأنّي، وقد طوّفت بعيدًا في بلاد الله، ما عرفت بقعة توافرت في تكوينها وفي مركزها من الأرض مظاهر الحسن والروعة والجلال مثلها في لبنان. ناهيك بالفصول تتعاقب فيه بأقصى الدقّة ومنتهَى النظام والاعتدال. فلا الشتاء يجور على الربيع، ولا الربيع يطمع في الصيف، ولا الصيف يأخذ من حصّة الخريف، ولا الخريف يعتدي على ما قسم للشتاء.

وإنّها لمتعة لا تملّها العين، ولا ترتوي منها الأذن، ولا يشبع منها الخيال أن ترقب قوافل الفصول تدرج من شاطئ البحر في لبنان إلى القمم، ومن القمم إلى شاطئ البحر، وقد قطرت أوائل هذه بأواخر تلك، فراحت كلّ قافلة تنثر في طريقها ممّا احتوته أعدالها: فهذه تنثر أزهارًا وأنوارًا، وأغاريد أطيار، وهدير شلّالات، ووشوشات نسمات. وتلك بقولًا وحبوبًا وثمارًا، ونهارات محمومة بالعمل، مغسولة بالعرق، وليالي تتغامز كواكبها في غمرة من الأنس والسلام. وهاتيك تنثر بروقًا ورعودًا وعواصف وفلذات تصعد من البحر مع الريح فتنثرها الريح على الجبال وإذا بها وشاح فائق البياض والسناء.

ولبنان، إلى ذلك، وديع ولطيف وكريم. لا يتكبّر ولا يتجبّر ولا يحبس محاسنه عن طالب. فما اشمخرّ بقممه إلى حدّ أن تعصى على الجناح والقدم. ولا انحدر بأغواره إلى حدّ أن تحتجب عن العين والأذن. بل أباح أعاليه لكلّ من آنس من نفسه النشاط لتسلّقها والرغبة في الانتشاء بسحر

الأعالي. مثلما أباح أغواره لكلّ من شاء أن يستحمّ في سكونها وسلامها. أمّا ظلاله الخلّابة، وأنواره الدفّاقة، وأصواته الموّاجة، وألوانه المتبدّلة في كلّ طرفة عين فمبذولة في كلّ ساعة من النهار والليل لكلّ من يسمع ويبصر. ولكن ما أقلّ السّامعين والمبصرين!

لو لم يكن لبنان فتنة من مفاتن الأرض لما تغنّى به الأنبياء والشعراء منذ أقدم الأزمان. فموسى الكليم إذ يضرع إلى ربّه أن يريه أرض الميعاد لا ينسى لبنان: «دعني أجوز فأرى الأرض الصالحة التي في عبر الأردنّ وهذا الجبل الحسن – لبنان» والله المتكلّم بلسان النبيّ هوشع لا يجد ما يمثّل به وعوده الطيّبة لإسرائيل أفضل من لبنان إذ يقول:

«وأكون لإسرائيل كالندى فيزهر كالسوسن ويمدّ عروقه كلبنان. وتنتشر فروعة ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان فيرجع الساكنون في ظلّه ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان».

وداود الملك يشبّه الصديق بأرز لبنان، وعندما يتنبأ لشعبه عن الخير الذي سيغدقه عليه الله يقول إنّ «غلّته في رؤوس الجبال تتموّج كلبنان».

وأمّا سليمان الحكيم فيدعو إليه حبيبته شولميت من لبنان: «هلمّي معي من لبنان أيّتها العروس» وشولميت تقول في حبيبها: «ساقاه عمودا رخام موضوعان على قاعدتين من ابريز. وطلعته كلبنان. هو مختار كالأرز».

لا يكاد يذكر لبنان إلّا ذكر معه الأرز، ولا عجب فلبنان قد تفرّد في القدم بهذا النوع من الشجر البديع في تكوينه، العجيب في صلابته التي تهزأ بالعناصر والسنين ولا تقوى عليها إلّا الصواعق والفأس والمنشار. لذلك أصبحت الأرزة على ألسنة الشعراء رمز الخلود، ولذلك اتخذها لبنان شارة مجد وكرامة. ولا شك في أنّ أعالي لبنان كانت تكتسي من زمان بغابات كثيفة من الأرز فتزيد في روعته وجلاله. أمّا اليوم فلم تُبقِ يد الأسلاف منها إلّا على بقيّة ضئيلة في جبل الأرز وجبل الباروك. ومن الأكيد أنّ عمر بعض الأشجار من تلك البقيّة يرقى إلى ما قبل المسيح.

تمنّيت لو يعود الأرز إلى سالف مجده في لبنان. ولكن في هذه الأمنية ما يذكّرني بأنّ لبنان ليس جبالًا شامخة، وأودية سحيقة، ونسمات منعشات، وينابيع دفّاقة، وبحرًا موّاجًا، وسماء زرقاء، وعطور زكيّة لا أكثر. بل هو، الى ذلك، مليون وبعض المليون من نساء ورجال بين كهول وشباب، وشيوخ وأطفال، ورعيّة وحكّام، وهو مزيج غريب من الأجناس والأديان. وقديمًا قيل: «السرّ في السكّان لا في المكان». فماذا عساني أقول في سكّان لبنان؟

من شاء أن يعرف اللبنانيّ الصميم عليه أن يتغلغل في قراه الجميلة المنثورة على سفوح الجبال وفي منحنيات الأودية من علوّ الألفين من الأمتار حتّى شاطئ البحر. أمّا مدن لبنان الساحليّة فلا

تمثّل لبنان إلّا كما يمثّل بحره الينابيع البلّوريّة المنبجسة من صدور جباله. ففي تلك القرى تتجلّى لك الفطرة اللبنانيّة في أصدق معانيها ومجاليها.

لعلّ أوّل ما يسترعي انتباهك وأنت تتجوّل في القرى اللبنانيّة أنّ عينك لا تقع، إلّا في النادر، على رجال ونساء وأطفال ركبتهم العاهات الجسديّة والعقليّة. فالقامة معتدلة، لا هي بالسمينة المتهدّلة ولا هي بالعجفاء المتيبّسة. والوجه إن لم يكن بارع الجمال، كان بعيدًا عن البشاعة والدمامة. أمّا رقعته ففي الغالب حنطيّة سمراء. وأمّا عينه فعسليّة أو سوداء يلتمع فيها النشاط والذكاء مع الطموح والاعتزاز بالنفس حتّى الكبرياء. ويمشي اللبنانيّ مشية الواثق من نفسه ومن حقّه في الأرض وفي الحياة. فلا وجل ولا ذلّ ولا انسحاق.

وتدخل البيت اللبنانيّ القرويّ، سواء أقصرًا كان أم كوخًا، فتعجب بما فيه من نظافة وترتيب، وتدرك في الحال أنّ المرأة اللبنانيّة سيّدة في بيتها، وأنّ بيتها إنّما يبوح بما فطرت عليه صاحبته من حبّ التنظيم والتدبير واللباقة وإكرام الغريب، والتعلّق بأسرتها، والقيام بواجباتها البيتيّة على أتمّ ما تسمح به ظروفها الماديّة والاجتماعيّة. وإن أنت نزلت ضيفًا على أحد القرويّين اللبنانيّين لمست جمال الروابط العائليّة ومتانتها. فالأسرة اللبنانيّة وحدة متماسكة، متضامنة، متكافلة، ما فصمت عراها حتّى الهجرة إلى العوالم الجديدة القصيّة، وقلّ أن تدخل بيتًا في قرية لبنانيّة إلّا تجد الأفراد الذين نزحوا عنه أكثر من المقيمين فيه.

ثمّ يذهلك وأنت تتجوّل في القرى الجبليّة، أن لا تعثر فيها على متسوّلين لبنانيّين، وأن لا تدخل قرية ليس فيها مدرسة أو شبه مدرسة، فاللبنانيّ ميّال إلى الدرس والتوسّع. وما أكثر الوالدين الذين يرهنون أملاكهم أو – كما يقولون – يبيعون ما فوقهم وما تحتهم، ليمكّنوا بنيهم وبناتهم من تحصيل قسط، وإن ضئيل، من العلم.

وإذا اتّفق لك أن تمرّ بقرويّين يعملون في حقولهم وكرومهم وجنائنهم أدهشك ما في عضلاتهم من قوة وجلد، وما في قلوبهم من حبّ للأرض وكلّ ما تنبته الأرض. فقد تقع على جماعة منهم يلغمون الصخور بالبارود والديناميت لينقّوا منها فسحة ضيّقة من التراب، يصوّنونها بالحجارة ثمّ يغرسون فيها جفنات من الكرم أو الزيتون أو فسيلات من التفّاح أو غيره من الأشجار المثمرة. إنّهم يغالبون الطبيعة وينتزعون لقمتهم من ضلوع الجلمود فيأكلونها مغموسة بالدم والعرق. ويستطيبونها لأنّها شريفة طاهرة. وقد تقع على والد يحصد القمح ومن خلفه ابنه الشابّ يجمع الحصيد وينقله على ظهره إلى البيدر. وقد يكون الوالد خريج مدرسة ثانوية ويكون ابنه طالبًا في جامعة وقد عاد إلى القرية لتمضية العطلة الصيفيّة.

وما أكثر ما تمرّ بقرية من القرى المعلّقة في الجبال فيدلّك أهلها على بيت حقير من بيوتها قائلين: من هذا البيت خرج فلان – وفلان قد يكون من مشاهير الشعراء أو الكتّاب أو الصحفيّين أو

السياسيّين أو المهاجرين الذين طار لهم صيت عريض في دنيا المال والصناعة والتجارة.

ذكيّ هو اللبنانيّ، ونشيط، ومقدام، وكريم. ولا حدّ لطموحه ما دام طليقًا يتصرّف بمواهبه حسب إرادته. ولكنّه إذا غُلّت إرادته بإرادة الجماعة مال إلى الأنانيّة وإلى اللامبالاة والاتكاليّة، فهو إذ ينجح كفرد يخفق كمجموع. ولو أنّه كان له بمجموعه مثل النشاط والذكاء والطموح والعناد والتفاني التي له بفرديّته لكانت حكومة لبنان مثالًا يحتذى، وشعب لبنان قدوة للشعوب، ولكان لبنان فردوسًا في الأرض.

وبَعدُ فالحرب العالميّة الأولى وما أنزلته بلبنان من النكبات – ثمّ الانتداب – ثمّ الحرب العالميّة الثانية وما حملته إلى لبنان من بحبوحة وبطر – كلّ ذلك قد بدّل الكثير في طبائع اللبنانيّين وعاداتهم وتقاليدهم. ولكنّه ما بدّل شيئًا في طبيعة لبنان، ولا قضى على شيء من ذكاء اللبنانيّ ونشاطه وطموحه.

عَين الرضى

أندر ما في الناس عين الرضى. تلكم العين التي وصفها الشاعر بقوله:

«وعين الرضى عن كلّ عيب كليلة»،

ثمّ استطرد فقال واصفًا نقيضتها:

«ولكنّ عين السوء تبدي المساويا».

وكيف للعين أن تكون عين رضى أو عين سوء؟ بل كيف لها أن تكون عين رضى وعين سوء في آن معًا؟ ألعلّ الرضى والسخط، والحسن والبشاعة، والأنس والإشمئزاز صفات كامنة في حدقة العين وإنسانها حتّى إذا هي نظرت إلى الكائنات أبصرت بعضها بغير سيئة أو عيب فكانت عين رضى، وأبصرت الآخر مليئًا بالعيوب والمساوئ فكانت عين سوء؟

ولكن العين، على كلّ ما في صنعها وتركيبها من مهارة عجيبة، ليست أكثر من آلة فوتوغرافيّة تلتقط ما ينعكس عليها من الأشكال والألوان. وسيّان عندها أكان ما يرتسم عليها كومة من الزبل والديدان أم حفنة من الجواهر وسربًا من العقبان. فهي لا تميّز الأشياء من حيث ألوانها وأشكالها، ولا من حيث قبحها وجمالها، ولا من حيث معانيها وأثمانها. أمّا المميّز فالمصوّر. والمصوّر الذي من وراء العين هو الوجدان، فكما المصوّر كذلك ما تصوّره عينه. إن يكن جميلًا وطاهرًا وصافيًا فكلّ ما تصوّره عينه جمال وطهر وصفاء. أو يكن قبيحًا وخبيثًا وعكرًا فكلّ ما تصوّره عينه قبح وخبث وعكر. أو يكن بين بين فعينه تنقل له صور العوالم بين بين.

أجل، هو الوجدان – ذلكم المصهر العجيب – يضفي على الأشياء روعتها وبهجتها وجلالها أو عكس ذلك بالتمام. فالأشياء في ذاتها بريئة من كلّ ما ننسبه إليها من الصفات. فهي جميلة أو قبيحة على قدر ما نسبغ عليها من جمال أو قباحة في وجداننا، وهي ثمينة أو بخسة، وكريمة أو خسيسة، ومفرحة أو محزنة، على قدر ما في أنفسنا من فهم لقيمتها، ومن كرامة وخساسة، ومن حزن وفرح. فقلب لفّه الحزنُ بالحدادِ لا يُبصرُ حتّى في الروضة الغنّاء غير الحداد. وفكرٌ حاصرته

هواجس خسيسة لا يرى في الكون إلّا الخساسة. وخيالٌ كبّلته الهموم يصوّر كلّ ما حواليه في غلائل من الهمّ. وعلى العكس قلبٌ نشوان بغبطة الوجود، وفكرٌ هائمٌ بعظمة المبدعِ الأوّل وكلّ ما أبدع، وخيالٌ طامحٌ إلى تمزيق حُجُب الزمان وتحطيم قيود المكان. فهذه لا تبصر في الأكوان غير الغبطة، وغير العظمة، ولا تطمح إلّا إلى الانعتاق الأبديّ. وعينها كليلة عن كلّ عيب.

وإذن فالعين التي أكلّمكم عنها هي غير العين المحصّنة في محجرها بالأجفان والأهداب والحواجب. هي العين الباطنيّة التي تطلّون منها على الكون. وهذه العين إن تكن جليّة صافية كان كلّ ما تبصرونه بها جليًّا وصافيًا. وإذ ذاك كان عالمكم خاليًا من كلّ عيب وكنتم في سلام سرمديّ مع أنفسكم ومع الناس ومع سائر الكائنات.

وهل في مستطاع الإنسان أن يجلو عينه الباطنيّة كيما يكون عالمه جليًّا؟

كيف لا وللإنسان نعمة الفكر والخيال والإرادة؟ فبالفكر والخيال – إذا نحن أحسنّا استعمالهما – ندرك أنّ الأكوان، ما بان منها وما استتر، جسد واحد، يحيا بروح واحد. وأنّ ذلك الجسد يشدّ بعضه بعضًا مثلما يشدّ البناء الواحد بعضه بعضًا. فأصغر ما فيه يسند أكبر ما فيه. وأكبر ما فيه يدعم أصغر ما فيه. فهو كامل بهندسته ومتانته. ومتى كان الكلّ كاملًا كان كلّ جزء من أجزائه كاملًا. والكمال يعني الجمال. والجمال يعني الانسجام التامّ. وحيث الانسجام التّام لا مجال لـ«لولا» و«لعلّ» و«عسى». فلا نقص، ولا عيب، ولا لومة للائم.

إن يكن الرأس تاج الجسد، والقلب مركز الحياة فيه، فليس في ذلك ما يعني أنّهما أكثر كمالًا، وأعظم مقامًا، وأجمل هيئة من الرجلَين واليدَين، ومن المعدة والأمعاء والكليتَين. ويقيني أنّه لو أتيح لإنسان من الناس أن يبصر معدته وأمعاءه وكليتَيه وأن يشمّ ما فيها لأنكرها وأنكر جسدًا يحتويها، ولقال فيها إنّها الشناعة لا تبزّها شناعة والكريهة لا تفوقها كريهة. وأيّ الناس مع ذلك لا يحمل معدته وأمعاءه وكليتَيه في كلّ لحظة من حياته، ولا يحرص على سلامتها حرصه على سلامة رأسه وقلبه؟ بل أيّ الناس لا يحسّ خللًا في توازن جسمه وجماله وكماله لدى أقلّ طارئ يطرأ على معدته وأمعائه وكليتَيه؟ وأيّ جسم بشريّ يُعَدّ كاملًا بغير معدة وأمعاء كاملة وكليتَين كاملتَين؟

هذا مثال واحد من أمثلة بغير حصر لأشياء كثيرة إذا نحن سلخناها عن أجسادها بدت لنا كريهة المنظر والطعم والرائحة. أمّا في أجسادها الكاملة فهي كاملة وعنوان الكمال. وهذه الأمور ندركها بالفكر والخيال. أمّا الإرادة فعملها أن تعكف على ما يراه الفكر والخيال فتجعل منه حقائق راهنة يقتبلها الوجدان الحيّ عن رضى وعن إعجاب ومحبّة كما يقبل نور الشمس وبهجة الربيع ونبض الحياة. فليس يكفينا أن نقبل من النحلة شهدها ثمّ أن نقول: «ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل». بل على الفكر والخيال أن يدركا أن شهد النحلة ما كان لولا إبرتها. وأن النحلة الكاملة لا تكون بغير إبرة كاملة. وعلى الإرادة أن تجعلنا نرضى عن إبرة النحلة رضانا عن شهدها. فالنحلة كيان لا

يتجزّأ. إن يكن بعضه جديرًا برضانا وإعجابنا فكلّه بإعجابنا ورضانا أجدر ثمّ أجدر. وإذ ذاك فهو الكمال الذي لا يشوبه أيّ عيب أو نقصان.

إن عين الرضى هي العين التي يقيم في بؤبؤها وجدان تعلّم أن ينظر إلى الأكوان بمجموعها لا بأجزائها. فهو لا يبارك أنوارها ويلعن ظلالها. لأنّه يعرف أنّ النور لا يسطع إلّا في إطار من الظلّ. فالنقض ظلّ الكمال، والبشاعة ظلّ الجمال، والرذيلة ظلّ الفضيلة، والضعف ظلّ القوّة، والموت ظلّ الحياة، وهكذا حتّى آخر ما في جدول الحسّ من متناقضات.

أما ترون معي أن أحوج ما يحتاجه الإنسان اليوم وفي كلّ يوم هو عين الرضى؟ فلو كان لنا مثل تلك العين يبصر بها الزوج زوجه، والأب بنيه، والجار جاره، والإنسان أينما كان أخاه الإنسان أينما كان لما عرفنا مآسي المخادع الزوجيّة، وصراع الآباء والبنين، وخصام الجار مع الجار، وثورة الإنسان على الإنسان. بل لو كان لنا مثل تلك العين يبصر بها المخلوق خالقه لكان العمر نشوة علويّة بكمال الخلق وجمال الخالق. أليس من العجب العُجاب أن يرضى الخالق بالمخلوق ولا يرضى المخلوق بالخالق؟ فها هي القدرة التي وهبتنا البصر ما تنفكّ تعرض علينا مشهدًا تلو مشهد من روائع الأرض والسماء. ولو أنّها ما كانت ترانا بعين الرضى لكفّت أبصارنا أو حجبت عنها روائع النجوم والفصول. أمّا نحن فننظر إليها بعين السوء. لذلك لا ننفكّ نعتب عليها، وننتقد أعمالها، ونظهر سيّئاتها، ونحاول تصحيح هفواتها. جاهلين أنّ ما نبصره من سيّئات وهفوات ليس إلّا سيّئاتنا وهفواتنا.

وما هي عين السوء؟ هي التي يطلّ من إنسانها وجدان يقوم بفكر مغلق وخيال هزيل وإرادة مرضوضة فلا تستطيع أن ترى الأشياء إلّا إذا سلخت بعضها عن بعض وبعثرتها نتفًا نتفًا، فمثلها مثل الولد تعطيه صورة من ريشة أشهر الرسامين، فيها الثمار الشهيّة وفيها الثعابين والأشواك والديدان فيقتطع منها الثمار ويطرح بما تبقّى في النار موقنًا أنّه قد أخذ منها خير ما فيها.

بمثل تلك العين ينظر الإنسان إلى الإنسان وإلى الأكوان. وبمثل تلك العين تتلاقى الأمم وتتخاطب وتتعاتب ثمّ لا تلبث أن تتشابك في ميادين القتال.

ألا أغمض اللهمّ عين السوء فينا. وافتح لنا عين الرضى لعلّنا نبصرك في أجسادنا وأرواحنا وفي كلّ ما نثرت وكلّ ما صوّرت لنا من جمال وكمال.

عِند الشَّدائد

من طبيعة الألم أنّه لا يطيق الكتمان. فهو أبدًا يذيع ذاته، إن لم يكن بالصراخ والأنين فبالإشارة والحركة، أو بانطلاق الدمع من العين، أو بانكماش أسارير الوجه انكماشًا قد يكون أبلغ بكثير في البوح بالألم من الدمع والحركة ومن الأنين والصراخ. وقليل هم الذين إذا عضّهم الألم فأدماهم جعلوا من دمائهم بلسمًا لجراحهم. وأقلّ منهم أولئك الذين يسمعون في صوت الألم صوت المعلّم الحنون، ويلمسون في يده يد المربّي الماهر أو يد الآسي الرفيق، فيستقبلونه استقبال الصديق ويكرمون وفادته ويقبلون بالشكر وبالفهم رسالته.

ومن طبيعة الموجوع أنّه لا يلذّ له شيء مثلما يلذّ له التحدّث عن أوجاعه. فهي الموضوع الأحبّ إلى لسانه وأذنه وقلبه. فكأنّ مكمَن الوجع فيه هو المحور الذي تدور عليه حياته. وكأنّ العضو المصاب في جسده، أضرسًا كان أم إصبعًا أم ظفرًا، هو العضو الأوّل والأهمّ في جسده. بل هو الجسد كلّه. وينسى، أو يتناسى، أنّ قلبه ما يزال ينبض بالحياة، وأنّ رئتيه وعينيه وأذنيه ومعدته وأمعاءه ما تزال تقوم بوظائفها العجيبة قيامًا هو في ذاته عجيبة وأيّ عجيبة. ولو أنّه استطاع أن يصرف فكره عن عضوه الموجوع إلى أعضائه السليمة لأذهله ما فيها من صحّة ودقّة وانسجام عمّا في العضو الوجيع من شذوذ والتواء. ولكنّه لا يستطيع.

والعالم العربيّ اليوم مصاب في عضو من أعضائه الرئيسيّة، وهو يئنّ من الألم ويصيح. وينتفض ويتلوّى، ويعبس ويحرّق أسنانه ولا يطيب له شيء مثلما يطيب له التحدّث عن أوجاعه، فهو يشكوها بألسنته وأقلامه، في الصحف وبالمذياع، في المدارس والمعابد، في البيوت والأسواق وعلى قوارع الطرق. يشكوها ليل نهار، وشكواه قد انتشرت غيومًا دكنًا في جوّه البديع، وانسدلت سحبًا سودًا على عينيه، وتربّعت همومًا ثقيلةً في قلبه. حتّى بات لا يحسّ من جسده غير عضوه الوجيع، ولا يسمع من أصوات الكون غير صوت النعيّ، ولا يبصر من ألوانه غير لون الحداد. فكأنّ الشمس والقمر والنجوم في مأتم دائم، وكأنّ الهواء نفثات مصدور، وكأنّ الأرض مقبرة

عقّمها الموت فلا حياة في رحمها ولا لبن في ضرعها. وكأنّ الله الذي ما سفر عن وجهه الكريم في أيّة بقعة من بقاع الأرض إلى حدّ ما فعل في هذه البقعة، قد انتحى من الكون ناحية قاصية. فلا نحن منه ولا هو منّا في شيء.

لا عجب أن تدمى قلوبنا لفلسطين الدامية، وأن نتألّم لآلامها. ولكنّ العجب كلّ العجب والألم كلّ الألم في أنّ الإنسان ما اهتدى حتّى اليوم إلى حبر يسطّر به تاريخه غير الدم. وفلسطين أبلغ شاهد على ذلك. فتاريخها منذ عهدنا بالتاريخ صفحات وفصول مجلّدات تنضح بالدم البشريّ . فما أظنّ أنّ بقعة من الأرض جُبل ترابها بالدم إلى حدّ ما جُبل به تراب فلسطين. وها هو العالم، عالم الإنسان، لا يكاد يخرج من بحر أحمر حتّى يغوص في آخر. أما ترون أنّ الناس – حتّى في الفترات التي يدعونها سلمًا – ينامون محاربين ويقومون محاربين؟ فالحرب ملء أفواههم وأجفانهم، وملء قلوبهم وأفكارهم. بها يتنادمون ويتسامرون، ولها يعملون ويستعدّون، وعلى مذابحها يتهافتون ويستشهدون، وبعجلاتها يتعلّقون وينسحقون.

لقد بلغنا زمانًا حربه حرب وسلمه حرب كذلك. أمّا النصر فيه فلن يكون للمكر والدهاء، ولا للدبّابة والطيّارة، ولا للقنابل الصاروخيّة والذرّيّة، ولا للغازات الخانقة والجراثيم المميتة. لا، ولا للمال ولا للرجال. بل لقوّة نذكرها كلّنا بشفاهنا في حالة الصفو والهناء ونطردها من قلوبنا في الصعاب والملمّات، وأعني قوّة الحقّ.

لئن ضاع معنى الحقّ على الناس في سائر أقطار الأرض فمن الحيف أن يضيع علينا في هذا الشرق الذي كان أوّل من بشّر العالم بالحقّ.

لئن تخيّل غيرنا أنّ الحقّ لا يكون إلّا في الاستمتاع والمتاع فمن العار علينا، ونحن ورثاء ثلاثٍ من أسمى وأبدع الديانات في الأرض، أن لا نعرف أنّ الحقّ ميزان يستحيل أن يطرأ عليه أقلّ خلل، ونظام لا يتبدّل ولا يتحوّل قيد شعرة، وأنّ الألم نتيجة لازمة للانحراف عن الحقّ، وأنّ حياة الإنسان على الأرض حياة درس وتجربة وامتحان، غايتها الوصول بنا إلى معرفة الحقّ كيما نتحرّر به من الألم. فنحن ما دمنا رهناء للألم دامت معرفتنا للحقّ ناقصة، ودمنا عالة على الحقّ. فما كان لنا أن نتوهّم أنّ في مستطاعنا أن نسوس أنفسنا والكون، ولا أن ننسى أنّ وراء إرادتنا إرادة الكون، وفوق قدرتنا قدرة الحقّ. وإذ ذاك فمن الخير لنا كلّما قامت في حياتنا مشكلة أن نتفحّصها على ضوء إيماننا بالحقّ.

فنحن لو تفحّصناها بنور الحقّ لوجدنا أنّنا المسؤولون عنها قبل سوانا، وأنّ علينا أن نلوم أنفسنا قبل أن نلوم الغير. إنّ محنة فلسطين هي امتحان لنا أوّلًا وللعالم بأجمعه ثانيًا. وهو امتحان قاسٍ وصارم من غير شكّ. وليس من العزّة أو الكرامة أو الحكمة في شيء أن نتوهّمه الامتحان الأوّل

والأخير أو الامتحان الأكبر والأهمّ. فنفتح أبواب قلوبنا للذعر والقلق واهمين أنّنا إن لم نجتز الامتحان ظافرين فقد خسرنا حقّنا في الحياة ورسبنا في أعماق لا خروج منها إلى الأبد.

لا، ليست محنة فلسطين بالامتحان الأوّل والأخير لحقّنا في الحياة. فلقد امتُحِنّا من قبل مرارًا بغير عدّ وسنُمتَحَن فيما بعد مرارًا بغير عدّ. ويقيني أنّنا لو لم نكن جديرين بالحياة لما كنّا اليوم على قيد الحياة. ولو لم يكن للحقّ غاية من وجودنا لما اندثرت شعوب كثيرة رافقتنا ورافقناها ردحًا من الزمن وبقينا نحن. فالحياة تكره الفضول والفضلات، ولا تبقي إلّا على ما لها مقاصد بعيدة من بقائه. ومقاصد الحياة منّا هي أكثر من أن تمتّعنا بفترة من الزمن ليست غير لمحة بالنسبة إلى الأزل والأبد نأكل فيها ونشرب، ونهنأ ونشقى، ونغدو ونروح، ونتسل طعامًا للموت ثمّ نغدو لقمة سائغة في فم الموت.

إنّ الرسالة العلويّة التي حملناها إلى العالم منذ مئات من القرون ما تزال رسالة علويّة سنيّة. ولو أنّ العالم اقتبلها وفهمها وعمل بها لما كانت مشكلاته وويلاته. ولا كانت محنة فلسطين. ولكنّ العالم اقتبلها بلسانه ونبذها بقلبه. ونحن في جملة الذين اقتبلوها في أفواههم وما أسكنوها قلوبهم. ولا أقول إنّ العالم قد أفسد تلك الرسالة. فهي أطهر من أن يتطرّق إليها أيّ فساد. وأقول إنّ العالم قد فسدت خميرته. فهو في حاجة إلى خميرة جديدة طاهرة من عفن البغض والشحناء والتهالك على الحطام والاستماتة في سبيل ملذّات ساعة لا تلبث أن تنقلب إلى أوجاع دهر.

ومَن أحرى منّا بتقديم تلك الخميرة إلى العالم؟ ومَن أحرى من هذا الشرق بتجديد الرسالة التي شعّت على العالم من قلبه ومن خياله؟ مَن أجدر منّا بشقّ طريقٍ جديدٍ امامَ هذا العالم التائه ما بين بصره وبطنه؟

نحن اليوم في شدّة. والشدائد محكّ الرجال. فهل لنا من إيماننا بأنفسنا وبحقّنا ما يجعل من الشدائد مطايا لنا طيّعة إلى أهدافٍ أبعد من أهداف الساعة، وإلى آفاق تتلاشى عندها الشدائد كما تتلاشى غيمة في الصيف؟

أننسى أنّنا هرّمنا آلاف الأجيال فما هرّمتنا الأجيال؟ وأنّ لنا في تربة الزمان جذورًا قويّة تمتدّ حتّى منبت الزمان. وفروعًا أزهرت كثيرًا وأثمرت كثيرًا وستزهر وتثمر حتّى آخر الزمان إن شاء الله؟

كيف لمن يسكن هذا الشرق الذي تتناثر فيه عن جوانبه دهور الدهور أن لا يشعر بخلوده؟ وإنّه لمن العار على من غلب الزمان كما غلبه هذا الشرق أن يهلع قلبه وتنهار عزيمته لدى اصطدامه بساعة «عابسة» ومشكلة طارئة. وإنّه لمن سخرية الأقدار أن يظهر في مظهر الضعيف اليائس، من علّم الناس الحقّ وهداهم إلى قوّة الإيمان به. وما هي أوّل ساعة عابسة تمرّ بنا على شاشة الزمان. ولا هي المشكلة الأولى تواجهنا من مشكلات الخير والشرّ والحقّ والباطل، ففي كلّ يوم

لنا ساعات عابسات، وفي كلّ يوم لنا مشكلة بل مشكلات تبدو كما لو كان حلّها ضربًا من المحال. ولكنّها لا تلبث أن تصبح خبرًا من الأخبار، أو رمادًا بغير نار.

تأتي المشاكل ومفاتيحها فيها. إلّا أنّ الذين لا إيمان لهم بحقّ غير حقّ السيف والساعد يلجّون في حلّها لجاجة تنتهي بأن تخلق من كلّ مشكلة مشكلات. أمّا الذين يؤمنون بحقّ أقوى من الساعد والسيف فإيمانهم يهديهم إلى مفتاح كلّ مشكلة. وإذا بها امتحان لهم لا محنة، ومدرّب لا معذّب، وقرص من الشهد لا كأس من العلقم.

نحن في شدّة. ولكنّ شكوانا من الشدّة لأشدّ وطأة من الشدّة. وأمامنا مشكلة. ولكنّ ضجيجًا أثرناه من حولها لمشكلة أعقد من تلك المشكلة. فشكوانا هي الشكّ في حقّنا. وضجيجنا هو الإزهاق لإيماننا.

ونحن إذا تعرّينا من الحقّ والإيمان بالحقّ فأيّ مبرر لوجودنا وبأيّ وجه نقابل العالم الذي حاولنا أمس ويجب أن نحاول اليوم وغدًا أن نردّه إلى الحقّ والإيمان؟

لا. ما مات إيماننا ولن يموت. وإن هو خبا نوره في قلوبنا إلى حين فلا بدّ من أن يشعّ من جديد، فنرتدّ إلى الصراط السويّ ونردّ العالم إليه بإذن الله.

إنّ قلبًا عامرًا بالإيمان لقلب تنهار من حوله الشدائد ولا ينهار بالشدائد. وإنّ روحًا يشدّ أزره روح الحقّ لروح يفهم أنّ ظلم الناس للناس هو عدل الله في الناس. فلا هو يتنكّر للناس إذا عدل الله معه. ولا هو يقنط من عدل الله إذا ظلمه الناس. بل يعمل الحقّ كما يفهم الحقّ. ويعامل الغير بالعدل كما يفهم العدل. ويبصر في كلّ شدّة مثالة وفي كلّ محنة امتحانًا. ويمضي في سبيله لا يرجو إلّا المعرفة ثوابًا وإلّا الله مآبًا.

الموَجِّه الأعظم

التوجيه!

هذه هي كلمة «السرّ» في دنيانا اليوم. فشعوب الأرض، على اختلاف الأقاليم واللغات والمعتقدات، تنزع جميعها في هذه الأيّام إلى توجيه كلّ مجرى من مجاري حياتها. فتوجيه قوميّ وسياسيّ. وتوجيه صناعيّ وزراعيّ، وتوجيه تربويّ وثقافيّ، وتوجيه علميّ وفنيّ، وتوجيه رياضيّ وحربيّ، إلى آخر ما هنالك من الأعمال المتعدّدة التي تقوم بها الحياة البشريّة في هذا العصر.

أمّا نتائج هذا التوجيه فما تزال غامضة كلّ الغموض. والأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّه ما من أمّة استطاعت حتّى اليوم أن تبلغ أهدافها. بل إنّ الكثير من الأمم بلغ في النهاية عكس ما كان يوجّه كلّ قواه إليه. فانكسر وكان يرجو الانتصار، أو انقرض وكان يطلب البقاء، أو شاخ وانتهكت قواه وكان يصبو إلى الشباب الدائم، أو أصبح في مؤخّرة الشعوب وكان يطمح إلى البقاء في مقدّمتها.

وما يصحّ قوله في الشعوب يصحّ قوله في الأفراد. فأيّ الناس، من آدم حتّى اليوم، لم يحاول بكثير أو بقليل أن يوجّه حياته إلى هدف أو إلى أهداف بعينها؟ وأيّ الناس يستطيع القول إنّه بلغ جميع أهدافه؟ بل أيّ الناس لا تشهد حياته بأنّه ما أدرك هدفًا من الأهداف التي نصبها لنفسه حتّى فاته عشرون هدفًا، وبأنّه كثيرًا ما انتهَى به السعي والجدّ والتوجيه إلى عكس ما كان يوجّه خطاه إليه، أو إلى نتائج ما خطرت له ببال، فكأنّه سيق إليها سوقًا؟

هل دار في خَلد خريستوفوروس كولمبوس يوم ولّى وجهه شطر المحيط الأطلسيّ أنّه سيكشف عالمًا جديدًا بدلًا من طريق جديد إلى الهند؟

أم هل خطر لنابليون يوم توجّه إلى روسيّا فدحر الروس في معركة بورودينو ودخل موسكو دخول الظافرين أنّه كان يوجّه خطاه إلى واترلو ومنها إلى جزيرة القدّيسة هيلانة؟

وهل مرّ ببال نيتشه ذي الإرادة الفولاذيّة، والقلم الناريّ، والمواهب البركانيّة إذ كان يحاول التحليق بالإنسان إلى ما فوق الإنسان أنّه كان يدبّ بنفسه وبمخلوقه «السوبرمان» إلى المارستان؟

وهل عنّ لغاندي غداة توجّه إلى الهيكل لملاقاة ربّه في الصلاة أنّه كان يتوجّه لملاقاة الرصاصات الأثيمة التي تركته جثّة بغير حياة؟

هذا وشل من بحر من الأمثلة التي حفل بها التاريخ عن أفراد وجّهوا كلّ قواهم إلى غايات بعينها فما أدركوها وأدركوا عكسها، أو أدركوا ما كان خيرًا منها لا عن قصد منهم وتصميم، ولا نتيجة لتوجيه وتنظيم، بل برغم المقاصد والتصاميم، وبرغم التوجيه والتنظيم.

ولماذا؟

لأنّ فوق إرادة أيّ إنسان وأيّ شعب إرادة الإنسانية كلّها. وفوق إرادة الإنسانيّة إرادة الأرض التي من لحمها ودمها تقتات الإنسانيّة. وفوق إرادة الأرض إرادة المسكونة التي ليست الأرض سوى عضو صغير من أعضاء جسدها الجبّار.

وأنا من غير أن أدخل وأدخلكم في جدال قديم عقيم عن الحرّيّة والقدريّة أريد أن أحدّثكم بكلّ تواضع عن شعور قويّ، عميق، لازمني منذ حداثتي بأنّ يدًا خفيّة تسند يدي، وفكرًا مجهولًا منّي يلهم فكري، وإرادة محجوبة عنّي تدعم إرادتي. وسأكشف لكم أحداثًا بسيطة من حياتي البسيطة جعلت ذلك الشعور أكثر من شعور – جعلته عقيدة راسخة ما أظنّ الزمان يزيدها إلّا رسوخًا. ولا بدّ لي قبل أن أقصّ عليكم ما سوف أقصّ، من كلمة تمهيد.

لعلّكم من قوم يحسبون الكلام عن القوى الخفيّة في الكون ضربًا من الخرافة والبلاهة. أولئك القوم هم في الغالب أهل العلم الحديث وأرباب الفلسفات الماديّة والذين يؤمنون إيمانهم بأنّ الإنسان يعمل ما يعمل بإرادته ووعيه وجدّه وفي معزل عن كلّ وحي غير وحيه. فهو الذي يوجّه حياته كيفما شاء وإلى الهدف الذي يشاء.

إن كنتم من أولئك القوم فأنا أدعوكم إلى التأمّل في ظاهرة واحدة من ظاهرات الكون. وهي الحركة.

أما ترون أنّ الكون يتحرّك حركة لا سكون فيها ولا انقطاع لها؟ فلا السوائل، ولا الجماد، ولا النبات، ولا الحيوان تكفّ عن الحركة لحظة واحدة ما دامت كلّ ذرّة من ذرّاتها في حركة دائمة. وما نحسبه جمودًا منها في حالة النوم أو في حالة الاستمرار والاستقرار في مكان واحد وعلى شكل واحد ليس أكثر من خدعة بصريّة.

ثمّ أما ترون إلى الحركة في الكون كيف تجري بدقّة ونظام يفوقان حدّ التصوّر؟ فللشمسِ مواقيتُها، وللقمرِ مواعيدهُ، وللأرضِ أزمنتُها. ومثلها لكلّ عالم من العوالم الشاسعة السابحة في رحاب الفضاء. ولولا ذلك لما كانت لنا التقاويم نقسّم بها الزمان، ولما استطعنا ونحن في الشتاء أن

نحلم بالربيع وأزهاره، وفي الربيع أن نفكّر بالصيف وأثماره، وفي الصيف أن نتوقّع الخريف، وفي الخريف أن نستعدّ للشتاء. وما حركة الحياة في الأجساد الحيّة بأقلّ دقّة ونظامًا من حركات الأجرام في سماواتها.

لو لم تكن حركة الكون منظّمة كلّ التنظيم لما كان من معنى لأيّ علم من علومنا. فغاية العلم هي الوصول إلى القوانين التي يتمشّى عليها الكون. والقانون لا يكون قانونًا إلّا إذا تكرّر بغير استثناء بتكرار ظاهرات مماثلة في ظروف مماثلة. وعالمٌ لا نظام فيه لَعَالم يستحيل أن يقوم فيه علمٌ من أيّ نوع كان.

ثمّ أما ترون أنّ حركات الأكوان حركات متواقتة متوافقة؟ ومعنى ذلك أنّ كلّ حركة من الشمس – مثلًا – تلازمها في عين الوقت حركة معلومة من الأرض والقمر والمرّيخ وغيرها وغيرها من الأجرام التي يتألّف منها عالمنا الشمسيّ. فكأنّ هذه الأجرام على مواعيد بعضها مع بعض في كلّ نبضة من نبضاتها وفي كلّ لمحة من وجودها. ولكنّ الجرم الذي يهمّنا نحن بالدرجة الأولى من بين تلك الأجرام هو الأرض – ذلك السيّار الصغير الذي ما انفكّ يطوف بنا الأجواء السحيقة ونحن نحسبنا في دورنا قابعين وبديارنا لاصقين.

إنّ الأرض في حركتها إنّما تطاوع حركة الكون. هل في ذلك شكّ؟ أمن الممكن إذنْ أنّ ما في جوفها وعلى سطحها وفي جوّها لا يطاوع حركتها؟ لو صحّ ذلك لصحّ أنّ القلب أو الكبد أو الرئتين أو أيّ عضو غيرها من أعضاء الجسد لا تطاوع حركة الجسد العامّة بل تستقلّ عنها وتجري في سبيل غير سبيلها وإلى غاية غير غايتها. إن تكن حركة الأرض حركة لها مواقيتها ولها نظامها أيجوز أن تكون حركة الأحياء وغير الأحياء على سطحها بغير مواقيت وغير نظام، وأن تجري إلى أهداف غير هدف الأرض، أو أن تكون مستقلّة عن حركة الكون؟

لو جاز لنا أن نسلّم بحركة واحدة في الكون خارجة عن نظام الحركة الكونيّة لجاز لنا التسليم بأنّ في استطاعة أيّ حرباء أو ضبّ أو خنفساء أن تفسد نظام الكون. لذلك أقول إنّ كلّ حركة يأتيها أيّ إنسان هي حركة خاضعة لنظام الكون ومتوافقة مع كلّ حركة أخرى تجري وإيّاها في لحظة واحدة. ونحن ما دمنا قاصرين عن فهم الحركات الكونيّة ومجاريها وأهدافها والعلاقات الخفيّة فيما بينها دمنا بعيدين عن المقدرة على توجيه حركاتنا إلى أهداف بعينها.

إنّه من المفروض في كلّ حركة أن يكون من ورائها محرّك. ومن المفروض في المحرّك أن يكون له من الحركة التي يبعثها غاية أو هدف. هذا إذا استقلّ المحرّك بحركته. ولكن إذا كان المحرّك نفسه يستمدّ حركته من محرّك سواه، وكان لا بدّ لحركته من أن تطاوع حركات كثيرة لا علم له بها ولا سلطان له عليها، فكيف له أن يوجّه حركته على هواه؟ إنّه إذ ذاك بمثابة محرّك واحد في سفينة هائلة عديدة المحرّكات. فهو إذ يتحرّك لا يتحرّك بذاته ومن ذاته. ولا يستقلّ

بحركته إلّا على قدر ما تطاوع حركات باقي المحرّكات. أمّا المحرّك الأوّل والأخير. وأمّا واضع الهدف، فربّان السفينة الذي يده على الدقّة وعينه على الهدف.

وبالإجمال، فما دمنا نجهل الصلة بين حركة تبدر منّا وحركات لا تحصى تبدر من غيرنا من الكائنات، ولا علم لنا بها ولا سلطان لنا عليها، دام توجيهنا ضربًا من اللهو والتخدير. فهو إن وافق الحركة الكونيّة فبلغ الهدف كان في اعتقادنا نجاحًا لنا مبينًا. وإن خالفها فطاش عن الهدف كان لنا فشلًا ذريعًا. ونحن لا نعلم متى يكون موافقًا ومتى يكون مخالفًا. إلّا أنّنا سنعلم يومًا ما. فلا نعاند الكون ونقاومه بل نسايره ونطاوعه. وإذ نطاوعه نفهمه. وإذ نفهمه نحبّه وإذ نحبّه لا نريد منه غير ما نريد من أنفسنا. فوجهته وجهتنا. وإرادته إرادتنا. وخيره خيرنا. وهدفه هدفنا. ونحن وإيّاه وحدة لا تنفصم ولا تتجزّأ. وريثما يتمّ لنا ذلك لا بدّ لنا من السعي.

أجل. لا بدّ لنا من السعي، فهو من طبيعة الحركة المحتومة علينا في عالم كلّه حركة. أمّا نتائج السعي فميزانها في يدٍ غير أيدينا لأنّها مرهونة بحركات وأسباب ونتائج كثيرة لا وصول لنا اليوم إليها ولا بالخيال. فنحن من هذا القبيل أجرام تدور في أفلاكها كما تدور الأجرام السماويّة سواء بسواء. فللأفراد أفلاكهم، وللأسَرِ أفلاكها، وللدول أفلاكها، وللبشريّة فلكها. بعضنا شموس تدور من حولها عوالم. وبعضنا سيّارات صغيرة تدور حول سيّارات أكبر منها. فالمذاهب على أنواعها من دينيّة وفلسفيّة واجتماعيّة وفنّيّة وسواها هي عوالم بشريّة تدور حول شموس بشريّة. وشموسها هم الأفراد الذين خلقوا تلك المذاهب.

وهكذا كلّنا أبدًا يدور. أمّا المحرّك الأوّل والموجّه الأعظم فأبعد من متناول أبصارنا وأفكارنا. ويا ويل من بلغ بهم الغرور حدًّا أصبحوا عنده لا يلقون بالًا إلى حركة غير حركتهم وإرادة غير إرادتهم. أولئك هم العميان وإن يكن في عيونهم نور. وأولئك هم المقعدون وإن سابقت أرجلهم الريح.

والآن إذا حدّثتكم عن شعوري القويّ، العميق، الذي لازمني منذ حداثتي بأنّ هنالك يدًا خفيّة تسند يدي، وفكرًا مستترًا يلهم فكري، وإرادة متحجّبة تدعم إرادتي، فرجائي ألّا تسيئوا فهمي. ورجائي أن تغفروا لي أمثلة بسيطة أسوقها إليكم من حياتي البسيطة. ولا شكّ عندي أنّ في حياتكم وحياة كلّ إنسان أمثلة تفوقها رونقًا ومعنى. وأنا كلّما التفتّ إلى الوراء رأيت حياتي سلسلة مُحكمة الحبك لو شئتُ أن أُسقط منها حلقة واحدة لما استطعت. وليس لي من فضل في حبكها سوى فضل الشاهد وفضل المساعد:

ولدت في قرية جبليّة من لبنان تدعى بسكنتا، ومن أبوين أرثوذكسيّين يجهلان القراءة والكتابة، ويعيشان مع الأرض ومنها. وأنا الثالث بين خمسة إخوة وأخت. فمن ذا الذي وجّه ولادتي فكان منها أن عشت ما عشت من السنين ولتلك الحفنة من الآدميين، ولتلك الزاوية الصغيرة في سفح

صنين، وللمذهب الذي ربيت فيه ونشأت عليه قسط ليس باليسير من قلبي وفكري وروحي في مختلف أدوار حياتي؟ وما أنا اخترتهم ووجّهت حياتي إليهم. فمن اختارهم لي ووجّهني إليهم؟

وكان أبعد ما تطمح إليه والدتي الأمّية أن ترى في بيتها كتبًا ودفاتر وأقلامًا ومحابر فلا يكون نصيبها من القراءة والكتابة نصيب أيّ ولد من أولادها. ولكنّ القرية لم يكن فيها غير مدرسة طائفيّة قوامها معلّم كان تلاميذه يلفظون كلمة «حينئذٍ» هكذا «حِنْيَئِزٍ». فينتهرهم بحنق ويهزّ عصاه في وجوههم صارخًا: لا تقولوا حِنْيَئِزٍ وقولوا «حِنْياذٍ». والمحلّق من التلاميذ من خرج من عنده وقد أتَى على آخر كرّاس «طوبَى». وطوبَى هي الكلمة الأولى في المزمور الأوّل من مزامير داود النبيّ. أمّا أكثر الأهلين فكانوا قانعين شاكرين إذا تعلّم اولادهم «تعليق الاسم» وذلك يعني أبسط درجات الكتابة.

وما زلت في ذكر تلك المدرسة فلا بأس لو أنا سردت لكم حادثة جرت لي فيها:

كانت المدرسة في علّية ذات سطح من التراب يعلو عن الأرض نحو التسعة من الأذرع. وكنت بين الخامسة والسادسة من عمري حين دخلتها. وكان من عادتنا قبل ابتداء الدرس في الصباح أن نلعب على سطحها. وذات صباح ذهبت إلى المدرسة باكرًا قبل شروق الشمس. فما عتّم أن اجتمع على سطحها رهط من التلامذة أكثرهم أكبر مني سنًّا، وأحدهم، وهو أكبرنا جميعًا، شبه أبله. ثمّ أطلّت الشمس من فوق صنّين فامتدت خيالاتنا طويلة، بعيدة. وخطر للأبله أن نلعب لعبة يحاول فيها الواحد أن يدوس برجله خيال رأس الآخر فلا يمكّنه من ذلك. وهاجمني الأبله حتّى ضايقني. فرحت أتراجع من وجهه يمينًا وشمالًا، وإلى الأمام وإلى الوراء. فما دريت إلّا وقد هويت عن السطح إلى الطريق المارّ من أمام المدرسة. وكان ترابه كأنّه الاسفلت أو أقسى. وعندما أفقت من غيبوبتي بعد ساعات وجدتني في بيت غير بيتنا وقد لففت من أمّ رأسي حتّى أخمصيّ بجلد خروف ذبح خصّيصًا لتلك الغاية، ولم يُترك فيه منفذ إلّا لعينيّ وأنفي. وعندما أُخرجت من قماطي الغريب بعد يومين أو ثلاثة أيّام وجدتني سالمًا ولا خدش في جسدي على الإطلاق.

من الأكيد أنّني ما دبّرت لنفسي تلك الوقعة ولا أحد من الناس دبّرها لي. فأيّ يدٍ دبّرتها لي ثمّ دبّرت لي النجاة منها؟ ولماذا؟

ما كان والداي ليقنعا لأولادهما بذلك الحدّ من «العلم» الذي كانت تقدمه مدرسة القرية. وأحوال العائلة المادّيّة ما كانت تتّسع للإنفاق على ولد واحد في مدرسة داخليّة. فكيف العمل؟

إلّا أنّ الموجّه الأعظم كان يعمل، في غفلة من والدتي ووالدي ومنّا نحن الصغار، ما كان أبعد من أن يخطر لأيّنا في بال. ففي عاصمة القياصرة الروس التي كنّا نجهل حتّى اسمها كانت قد تألّفت جمعيّة دعيت «الجمعيّة الأمبراطوريّة الروسيّة الفلسطينيّة» غايتها الظاهرة إنعاش الأرثوذكسيّة في الأراضي المقدسة عن طريق التعليم والتربية. وهذه الجمعيّة راحت تفتح المدارس

المجّانيّة في فلسطين أوّلًا. ثمّ امتدّت إلى سوريّا ثمّ إلى لبنان فما درينا إلّا وفي بسكنتنا مدرسة روسيّة ابتدائيّة منظّمة أحسن التنظيم ولا يتكلّف الطالب فيها شيئًا. فالكتب والدفاتر والأقلام – حتّى الصابون والمناشف والأمشاط – كانت تقدّم بغير حساب ولوجه الله الكريم.

وهذه المدرسة كان لها أبعد الأثر في توجيه دراستي وبالتالي كلّ حياتي – فيما بعد. وما أنا أسّست الجمعيّة الأمبراطوريّة الفلسطينيّة ولا أوحيت بتأسيسها لتوجّه حياتي. ولا هي كانت تعرف شيئًا عنّي. فمن ذا الذي وجّهها، وهي في بطرسبرج، لتوجّه حياة ولد في بسكنتنا؟

كنت بين السادسة والسابعة عندما دخلت المدرسة الروسيّة في بسكنتا. وكان أقصى ما أتمنّاه آنئذٍ أن أخرج منها ولي الأهليّة لأن أدرّس الصفوف السفلى في مدرسة مثلها وبراتب لا يتجاوز في تلك الأيّام العشرين فرنكًا فرنسيًّا. وما أحسب أنّ والدتي أو والدي كانا يطمعان لي بمجد فوق ذلك المجد.

ولكنّ الموجّه الأعظم، من غير علم منّي، كان يقودني في طريق غير ذلك الطريق. فما مضى على وجودي في تلك المدرسة خمس سنوات حتّى قيل لي إنّني انتدبت لمتابعة دروسي في دار المعلّمين الروسيّة في مدينة الناصرة. وهي المدينة التي ربي فيها يسوع الناصريّ والتي قال فيها أحد تلاميذه عندما سمع به وقبل أن يراه: «وهل يخرج من الناصرة شيء صالح؟» ودار المعلّمين في الناصرة كانت مدرسة مجانيّة كذلك حتّى في لباسها. وكانت منظّمة أفضل التنظيم. مدّة التدريس فيها ستّ سنوات وغايته إعداد مديرين للمدارس الروسيّة الابتدائيّة التي أخذت تنتشر في البلاد حتّى بلغ عددها الخمسين أو يزيد. وهنا كذلك اطمأنّ بالي إلى مستقبلي ورحت أتخيّلني مدير مدرسة ما في مكان ما براتب يبلغ الخمسة والخمسين فرنكًا.

ولكنّ الموجّه الأعظم كان يوجّهني شطر حياة غير تلك الحياة وفي سبيل غير ذاك السبيل. فما إن أتيتُ على آخر السنة الرابعة في الناصرة حتّى أنبأتني رئاسة المدرسة بأنّي مُنتدب لمتابعة دروسي في روسيا على نفقة الجمعيّة الأمبراطوريّة بما فيه سفري ذهابًا وإيابًا ونفقة جيبي شهريًّا كلّ مدّة إقامتي في روسيّا.

دخلت السمنار الروحيّ في مدينة «بولتافا» من جمهورية أوكرانيا اليوم، عام 1906 وأنا بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمري. وكان لي الخيار من بعد السمنار أن أدخل إحدى الأكاديميّات الروحيّة. مثلما كان لي الخيار بعد نهاية دروسي أن أنخرط في السلك الإكليريكي أو أن أبقى علمانيًّا. وإذ ذاك فمستقبلي مستقبل معلّم في مدرسة كمدرسة الناصرة وبراتب يزيد عن المائة فرنك. وكنت من زمان أحسّ ميلًا قويًّا إلى الأدب. وهذا الميل أخذ يزداد حتّى أصبح جارفًا من بعد أن انفتحت أمامي خزائن الأدب الروسي الفيّاض. فلا التعليم يغريني. ولا الكهنوت يجذبني ولو بخيط عنكبوت. وإذنْ ماذا أعمل وكيف أحصّل رزقي؟

أخيرًا قرّ رأيي عند نهاية السنة الرابعة في سمنار بولتافا – وكانت تعادل البكالوريا – أن أعود إلى لبنان ومنه إلى باريس حيث أدخل السوربون وأدرس المحاماة. وقد كنت أكره المحاماة فما فكّرت في درسها حبًّا بها. بل لأنّها من جميع المهن الحرّة تمتّ إلى الكتابة والخطابة بصلة. ولأنّها مورد رزق ما كنت آمل آنذاك أن يأتيني من شقّ القصبة.

وهنا كذلك تدخّل الموجّه الأعظم وإذا بي قبيل نهاية عام 1911 في مدينة تدعى «والا والا» من ولاية واشنطن في الولايات المتحدة الأميركيّة بدلًا من العاصمة الفرنسيّة. وإذا بي في السنة التالية أدرس الحقوق في جامعة ولاية واشنطن لا في السوربون! لقد تمّ كلّ ذلك كما تتمّ الأمور في الحلم. ذلك أنّ شقيقي الأكبر الذي كان قد سافر إلى الولايات المتحدة عام 1900 عاد في زيارة قصيرة إلى لبنان بعد غيبة إحدى عشرة سنة من غير أن يكون لي أو لأحد غيري من أهله أقلّ علم بنيّته وعزمه على العودة. وكانت عودته قبل موعد سفري إلى باريس بأسبوعين. وكنت ألقي عليه وعلى أخي الآخر الذي لحقه إلى أميركا اتّكالي في القيام بنفقات دروسي ومعيشتي في باريس. فأقنعني في النهاية بأن أعود معه إلى أميركا وأن أتابع دروسي في جامعة من جامعاتها. وهكذا كان.

إنّ السفر إلى الولايات المتحدة والدرس في جامعة من جامعاتها ما كانا يخطران لي ببال. فمن وجّه أخي ليعود إلى لبنان حين عاد فيغيّر مجرى حياتي على النحو الذي ذكرت؟

دخلت الجامعة عام 1912 وقد رسمت لحياتي خطّة ما كانت الأولى أرسمها فتعبث بها الأيّام. ولكنّني ظننتها هذه المرّة الخطّة المثلى والأخيرة. فسأحصل على شهادة المحاماة بعد أربعة أعوام وأعود إلى لبنان حيث المحامون الحاملون شهادات جامعيّة يُعَدّون على الأصابع في تلك الأيّام. فيكون لي شأن ويكون لي مقام.

أنهيت دروسي ونلت شهادتي عام 1916. ولكنّ أرفع مقام بلغته شهادتي في حياتي ما كان أكثر من غلاف بسيط وضعتها فيه. وهي ما تزال حتّى الساعة نائمة في غلافها نوم الأبرار. فطريقي إلى لبنان كان مسدودًا من سائر الجهات. إذ كانت الحرب العالميّة الأولى في أشدّ استعارها. وما أنا أشعلت نارها. فمن أشعلها ليسدّ في وجهي باب العودة إلى بلادي ويقلب خطّتي رأسًا على عقب ويغيّر مجرى حياتي؟ وما كفاني أن سدّ في وجهي باب الأوبة إلى بلادي حتّى وجدتني في شهر أيار من سنة 1918 جنديًّا في الجيش الأميركيّ مسوقًا إلى الجنديّة بنظام التجنيد الإجباري.

أنا جنديّ وعلى جنبي حربة وفي كتفي بندقيّة؟!.. أنا الذي يكره الحرب كرهًا ما بعده كره، ويحبّ السلم محبّة ما فوقها محبّة – أنا الذي يبارك الحياة ويقدّسها حتّى في أصغر المخلوقات شأنًا – أنا مدعوّ لخدمة الحرب، وقهر السلم، وإتلاف الحياة في مخاليق مثلي لا أعرفهم ولا يعرفونني،

ولا آذيتهم في حياتي ولا آذوني؟! حقًّا إنّها المهزلة الكبرى. وإنّها المأساة الجلّى. ولكنّ سنة صرفتها جنديًّا بسيطًا في فرنسا ومنها تسعة أيّام في خطوط النار، ما كانت مهزلة ولا مأساة. وحلقاتها في سلسلة حياتي، كما أراها اليوم، هي من الحلقات الفضّيّة، بل الذهبيّة. فأيّ يد صاغتها وكوّنتها حلقات متماسكة في سلسلة حياتي رغم إرادتي ورغم كلّ ميولي؟ بل أيّ يدٍ قادتني إلى ميادين القتال وكانت رفيقةً بي إلى حدّ أنّني ما أُكرهت أن أطلق رصاصة واحدة من بندقيّتي على جنديّ من «الأعداء» ولا أُكره جنديّ من الأعداء أن يطلق رصاصة واحدة عليّ رغم أنّني كنت في خطوط النار ومحوطًا من كلّ جانب بالأخطار؟ إنّها لم تكن يدي من غير شكّ.

وجدير بي وأنا أحدّثكم عن حياتي في الحرب وعن اليد الخفيّة التي قادتني إليها ومنها أن أسرد لكم حادثًا واحدًا من حوادث كثيرة وطريفة وقعت لي في خلال خدمتي العسكريّة في فرنسا:

كنّا في طريقنا من المؤخّرة إلى الجبهة. وكنّا نقطع المسافة آنًا على الأقدام وآنًا في قطارات بطيئة للشحن كتبت على كلّ حافلة من حافلاتها هذه الأرقام والكلمات باللغة الفرنسيّة: «8 أحصنة – 40 رجلًا» أي أنّها تتّسع لثمانية أحصنة أو لأربعين رجلًا. وبتنا ذات ليلة في قرية من القرى الفرنسيّة حيث بقينا حتّى عصر اليوم التالي إذ صدرت الأوامر بالانتقال إلى نقطة ثانية تبعد عن تلك القرية نحو العشرين من الكيلومترات. وكان علينا أن نقطع المسافة مشيًا على الأقدام وعددنا نحو الألف أو أكثر. وكأنّ القيادة أشفقت علينا من قطع تلك المسافة وعلى ظهر كلّ منّا عدّة تبلغ زنتها عدّة أرطال. فرأت أن تنقل العُدد في سيّارات شحن لتخفّف عنّا مشقّة السير في الظلام.

وعُدّة الجنديّ الأميركيّ في تلك الأيّام كانت تتألّف من نصف صِيوان وحرامين من الصوف وبدَلٍ واحد من الثياب التحتانيّة وحذاء ثقيل ذي نعل بمسامير، وقصعة الأكل والشرب، ورفش أو معول. وهذه كلّها كانت تلفّ في شكل أسطوانيّ بأسيار خاصّة، وتشدّ بأسيار أخرى إلى الظهر والكتفين. ذاك علاوة على الخوذة الفولاذيّة وكمّامة الغازات الخانقة والحربة والبندقيّة. وكان لكلّ جنديّ رقمه الخاصّ يحمله في عنقه مطبوعًا على قرص صغير من الألمنيوم ويرقّمه بالحبر الهنديّ على عدّته وثيابه.

مشينا عصر ذلك النهار وليس في أكتافنا غير البندقيّة وعلى أجنابنا غير الحربة. ونحن لا نعرف إلى أين نمشي وأين نبيت ليلتنا. وعند الغروب أخذت السماء تمطرنا رذاذًا ما لبث أن تحوّل مطرًا هطّالًا. ونحو التاسعة، وفي ظلمة تكاد تنشر بالمنشار، وفي بحر من الوحل، بلغنا أكمة عليها بضع بنايات خشبيّة عرفنا أنّها ثكنة أميركيّة حديثة وأنّنا سنبيت ليلتنا فيها. وكان محظورًا علينا تحت طائلة العقاب الصارم أن نشعل في الليل نارًا مهما تكن ضئيلة. فلا سيكارة ولا عود ثقاب. وذلك خشية طيّارات العدوّ. أمّا بنايات الثكنة فكانت تلوح من نوافذها أنوار مخنوقة.

وارتفع صوت ضابط من ضبّاطنا في ذلك الليل الدامس الممطر البارد من أواخر تشرين الأوّل. وفهمنا من الصوت أنّ حقائبنا التي حملتها الكميونات مكدّسة في كومة واحدة على مقربة منّا. وأنّ على كلّ جنديّ أن يقترب من الكومة فيأخذ منها أوّل حقيبة تلمسها يده في الظلام ويحملها إلى أقرب بناية حيث يجري فرز الحقائب في ضوء المصابيح فيعرف كلّ حقيبته من الرقم الذي تحمله. وكان أنّي عندما رزمت حقيبتي الأسطوانيّة استعصى عليّ سير من أسيارها فاستعنت بدبّوس لسدّ ثغرة تركها السير العاصي في أسفلها.

وقبل أن أتقدّم من كومة الحقائب لآخذ منها واحدة وأمضي في سبيلي خطر لي خاطر ما أظنّ أنّ مثله خطر لجنديّ غيري. أمّا كيف جاءني ذلك الخاطر، ومن أين، ومن أوحى به إليّ فلا أدري. فقد قلتُ في نفسي: إذا اتّفق وكانت الحقيبة التي سأرفعها بيدي حقيبتي بعينها فذلك سيكون لي علامة بأنّني لن أصاب بأذى في الحرب. وكنت أخشى التشويه والتعطيل عن العمل أكثر ممّا أخشى الموت.

خطر لي ذلك الخاطر في لمحة الطرف وقبل أن أخطو خطوتي الأولى نحو كومة الحقائب. وما إن خطر لي حتّى رحت أؤنّب نفسي أعنف التأنيب قائلًا إنّ ما خطر لي ما كان غير خاطر صبيانيّ. ومن العار عليّ أن أعيره أقلّ اهتمام. فنصيبه من النجاح ما كان أكثر من واحد في الألف. فكيف أفتح بابًا للوساوس أنا في غنًى عنه؟ إنّه لخاطرٌ عابر. فلأنبذه من فكري. ورحت أحاول طرده فما ينطرد. بل كان يلحّ عليّ إلحاح صورة الينبوع المتدفّق على من يوشك أن يقضي عطشًا.

أخيرًا تناولت حقيبة وطرحتها على ظهري ومشيت مع الماشين وأنا أحاول أن أصرف فكري عن ذلك الخاطر الغريب فلا ينصرف. وإذا بيدي، وأنا سائر في الظلام وتحت المطر، تتحسّس الحقيبة على ظهري فأزجرها وأردّها المرّة بعد المرّة. ولكنّها في النهاية تتغلّب عليّ فتنحدر من أعلى الحقيبة إلى أوطأ فأوطأ. ما هذا؟ إنّه السير الذي استعصى عليّ شدّه... ويخفق قلبي خفقة بعيدة القرار. ولكنّ فكري يبقى في شكّ. فقد يكون في حقيبة غيري سير استعصى على صاحبه. وتعود يدي مرّة أخرى إلى الحقيبة فتنحدر إلى أسفلها حيث تلمس الدبّوس الذي سددت به الثغرة. فينقشع عن فكري كلّ شكّ ويرتقص قلبي في داخلي. وتعتريني رعشة من الرهبة والدهشة والخشوع. إنّ الحقيبة التي على ظهري كانت حقيبتي! وأظنّني كنت الوحيد في الفيلق كلّه الذي كان له مثل ذلك الحظّ. وكنت أوّل من افترش فراشًا واستسلم إلى النوم بينما بقي الآخرون من رفاقي ساعات يتنادون: رقم كذا وكذا لمن؟

فمن أين خطر لي ذلك الخاطر، ومن ذا الذي مدّ يدي في ذلك الليل البهيم إلى حقيبتي ما بين ألف حقيبة؟ إنّي لأشهد أنّ ذاك الخاطر ما كان من وحي خاطري، وأنّ اليد التي انتقت في الظلام

حقيبتي من بين ألف حقيبة ما كانت يدي.

ثلاث كان قلبي وفكري ينفران منها منذ أن بدأت أحسّ الدنيا وأفكّر في الناس وشؤونهم منها: الحرب والمحاماة والتجارة. ولو كان لي الخيار في تخطيط حياتي لما كان فيها لأيّ من تلك الثلاث أقلّ نصيب. ولكنّ يدًا غير يدي، وفكرًا غير فكري، وإرادة غير إرادتي كانت تعرف غير ما أعرف وترتإي لي غير ما أرتإيه لنفسي. فقد رأت أنّه من الخير لي أن أخبُر الحرب والمحاماة والتجارة، ولو بعض الخبرة، ثمّ أن ألقي بها جانبًا كما يلقي آكل الجوزة بقشورها من بعد أن يحصل على لبابها. فكان أن عدت من الحرب عام 1919 وسرّحت من الجندية وليس لي حرفة أو مهنة أرتزق منها كفاف عيشي. أمّا الأدب العربيّ الذي كنت قد نزلت حومته فما كان من المأمول أن يقوم بأودي. لا سيّما في غير أوطانه. وهكذا وقفت على مفرق الطرق.

وأنا كذلك إذا بصديق هو اليوم خلف ستار المحسوسات يسألني ذات يوم: «ما قولك في التجارة؟ أترضى الاستخدام في محلّ تجاريّ؟ إنّني أعرف ثلاثة إخوة هم من خيرة رجالنا ولهم تجارة واسعة. وهم في حاجة إلى شابّ مثلك». وكنت لا أعرف من أسرار التجارة أكثر من أن أبتاع حاجاتي في السوق. أمّا من أين تأتي تلك الحاجات، وكيف تُصنع، وكيف تعدّل أثمانها، وكيف يأتي الربح، ولماذا تقع الخسارة، فهذه كلّها ما كنت أعرف عنها غير ما يعرفه أبسط الناس. وجمعني صديقي بالإخوة الذين حدّثني عنهم. فتفاهمنا في الحال. وفي اليوم التالي كنت مبتدئًا بدرس الألف والباء من كتاب جديد عنوانه التجارة. فمن جمعني بصديقي ليجمعني بالإخوة التجّار ويدخلني عالمًا كان غريبًا عنّي وكنت غريبًا عنه؟ ما كان ذلك من وحيي ولا من وحي صديقي. بل من وحي حاجة هاجعة في نفسي كنت أجهل وجودها. ولكنّ الموجّه الأعظم كان يعرف ما كنت أجهل.

وماذا أقول في حياتي الأدبيّة والفكريّة والروحيّة؟ إنّها مليئة بالأحداث التي ما كان لي فيها رأي ولا كان لي عليها سلطان. وحسبي أن أذكر منها «الرابطة القلميّة». فهل أنا قلت لذلك النفر من الأدباء: كونوا فكانوا؟ وهل أنا وقّعت الأزمنة والأمكنة التي وُلدوا فيها، ثمّ أودعت كلًا منهم مواهب بعينها، ثمّ سقتهم عامًا بعد عام ورتّبت حياتهم بطريقة كان منها أن اجتمعوا في فترة من الزمان لا قبل ولا بعد، وفي فسحة من المكان لا في سواها، فتعارفوا وتقاربوا وتفاهموا ومضوا يشقّون طرقًا جديدة في الأدب العربيّ؟ وهل من ينكر فضل «الرابطة القلميّة» في توجيه آدابنا الحديثة؟ ولكن من وجّه «الرابطة» لتوجّه بدورها الأدب العربيّ الحديث؟

إنّ إيماني بالموجّه الأعظم يحملني على الشهادة بأنّه ما وجّه المجاري الكبرى في حياتي وحسب، بل المجاري التي تبدو كما لو كانت غير ذات بال. من ذلك الناس الذين عرفتهم فكان لهم في حياتي أكبر الشأن، والناس الذين لم يكن لهم في حياتي شأن يذكر. وقد عرفت من الناس فوق

ما أستطيع عدّه أو حصره. والظروف التي جمعتني بأولئك وهؤلاء ما كانت من تدبيري ولا من خَلق إرادتي. فمن دبّرها؟ وإرادة من خلقتها فجعلت حركاتي وحركات كلّ من عرفتهم من الناس متواقتة متوافقة في أزمنة معلومة وأمكنة محدودة؟

كذلك الكتب التي قرأتها في حياتي وهي أكثر من أن أذكرها. والتي لم أقرأها وهي أكثر من أن تحصى. فيَدُ مَن قادتني إلى تلك وصدّتني عن هذه؟ وها هي مكتبتي الصغيرة لا تزال على رفوفها مجلّدات ما قرأت منها أكثر من عناوينها. فقد أفتح كتابًا غير مرّة في السنة وأطالعه في كلّ مرّة بشوق ولذة. وبجانبه كتاب لا تمتدّ إليه يدي إلّا لتسويته في مكانه أو لنفض الغبار عنه. ولي مع الكتب، مثلما لي مع الأشخاص، حكايات غريبة لا بأس لو رويت لكم واحدة منها:

كنت مرّة في مدينة فيلادلفيا في مهمّة خاصّة. وأنجزت مهمّتي قبل الظهر وبقي لديّ نصف ساعة لموعد القطار الذي سيعود بي إلى نيويورك. فقلت أتمشّى قليلًا في الشارع الكبير ثمّ أذهب إلى الفندق ومنه إلى المحطّة. فلم يرقني المشي في شارع مكتظّ بالناس والعجلات. وإذا بي أدخل مخزنًا من المخازن الشهيرة في المدينة ولا حاجة لي أبتاعها أو أبيعها هناك. فقد كان فكري منصرفًا عن كلّ ما حولي من البشر والأشياء إلى أمور أبعد من المعيشة ومشاكلها وأوصابها. حتّى كنت أمشي كمن يمشي في المنام. وإذا بي أبصر عن يمين المدخل طاولات عليها كتب. منها طاولة علّقت فوقها لوحة عليها هاتان الكلمتان: الفلسفة الشرقيّة. فأتقدّم من الطاولة وأتفرّس في الكتب التي عليها. وأكثرها ما سمعت به من قبل. وما أزال أرفع كتابًا ثمّ أضعه إلى أن وقع في يدي كتاب صغير عنوانه: «لاوتسو - طاو - ته - كنغ» وكان العنوان كعناوين الكثير من الكتب حواليه غريبًا عن كلّ ما احتوته ذاكرتي. لكنّني أخذت الكتاب وبدون أدنَى تردّد دفعت ثمنه وعدت إلى الفندق. وبدلًا من أن أنطلق إلى المحطّة دخلت غرفتي وأوصدت بابي ورحت ألتهم الكتاب التهامًا. فما وضعته من يدي حتّى أتيت عليه من الدقّة إلى الدقّة. قرأته وكأنّني ما قرأت كتابًا بل وجدت رفيقًا أمينًا في بيداء شاسعة كنت أسلكها وحدي، وفي حين كنت في أمسّ الحاجة إلى رفيق أمين. فقلت في نفسي: سبحان من بعث إنسانًا مات في الصين منذ ألفين ونصف الألف من السنين ليكون رفيقًا لإنسان وُلد في لبنان وما كان يعرف عنه شيئًا! ثمّ سبحانه يجمعهما في فندق بمدينة فيلادلفيا من الولايات المتّحدة الأميركيّة! حقًّا إنّه الموجّه الأعظم وما من موجّه سواه.

* * *

هذه أمثلة قليلة سردتها لكم من حياتي وفي حياتي وحياتكم وحياة كلّ إنسان منها الشيء الكثير. ولست أريدكم أن تفهموا منها أنّني أدعوكم إلى الكفّ عن السعي والحركة. فأنتم لو شئتم الجمود لما استطعتم إليه سبيلًا. ولا بدّ لكم من الحركة لأنّكم بعض من عالم دأبه الحركة، سواء أكانت حركتكم مقاومة للحركة الكونيّة أم مطاوعة لها. وسواء أعلمتم أم جهلتم أنّ المقاومة عاقبتها الخيبة والألم،

والمطاوعة نتيجتها النجاح والانشراح. فبالتجربة ستتعلّمون في النهاية ما كنتم تجهلونه في البداية. وإذ ذاك تطاوعون الكون عن فهم لا عن جهل، وعن رضًى لا عن كراهية.

وتدركون أنّكم إذ تطاوعون القوى الكونيّة إنّما تطاوعون قوى مماثلة في أنفسكم. ولكنّكم تجهلون اليوم مصادرها ومداها مثلما يجهل الطفل القوى الكامنة فيه. فحينًا يحسن استعمالها فيسعد. وحينًا يسيء فيشقى. ومثلما نوجّه الطفل إلى المشي والنطق والتمييز ما بين الخير والشرّ مستندين إلى قدرة كامنة فيه على المشي والنطق والتمييز، هكذا يوجّهنا الموجّه الأعظم مستندًا إلى قوى كامنة فينا ريثما نبلغ أشدّنا ونملك كلّ قوانا فنوجّه أنفسنا بأنفسنا. ونحن لن نملك كلّ قوانا حتّى نملك معرفة مقامها من القوى الكونيّة ومعرفة استعمالها لخيرنا وخير الكون.

وهل من يشكّ في أنّ الإنسان لم يبلغ أشدّه بعد؟ إنّه بما تفتّح فيه من قوى حتّى اليوم ما يزال طفلًا بالنسبة إلى القوى التي ما تبرح هاجعة في كيانه. فهو ماردٌ إذا قيس بما دونه من الكائنات. وهو قزم إذا قيس بما فوقه. فجدير به أن يتّكل على الموجّه الأعظم إذ يتّكل على نفسه. فلا يعاتب الدّهر والناس والأرض والسماء كلّما سدّد سهمه إلى هدف من أهدافه فطاش سهمه. ولا ينتفخ غرورًا كلّما أصاب سهمه الهدف، فيمضي يتبخر ويتكبّر ويتجبّر واهمًا أنّه وحده سيّد حياته المطلق يسيّرها كيفما شاء وإلى الهدف الذي يشاء. وهل يستطيع أن يسيّر حياته على هواه إلّا من كان في مستطاعه أن يسيّر الكون على هواه؟ أجل. إنّه لجدير بالإنسان أن يذكر أبدًا أنّه ما من عمل يعمله إلّا ويد الكون تعمل مع يده. وذلك ما عناه السيّد المسيح بقوله: مهما عملتم فقولوا – إنّما نحن عبيد بطّالون.

ذاك هو الإيمان الذي تدعوكم إليه حياتكم. وهو السلاح الأوحد الذي قهر الزمان حتّى الآن. فطوبَى ثمّ طوبَى للمؤمنين!

أمّا أن يقول قائل إنّ إيمان الإنسان بقوى فوق قواه يبعث على الجمود والكسل والتواكل، وعلى الخوف والحيرة والتردّد، وإنّه يخلق شتّى الأوهام والترّهات والخرافات، فبهتان وزور وهذيان. لئن صحّ مثل ذلك القول في الإيمان الأعمى فهو لا يصحّ في الإيمان المبصر. والإيمان المبصر هو المعرفة ما نبتت قوادمها ولا اشتدّت مخالبها بعد. ولكن مخالبها ستشتدّ وقوادمها ستنبت فتحلّق في كلّ جوّ لا يصدّها حاجز، ولا تعوقها عواصف.

إنّ ربًّا تخافونه لربّ لا تحبّونه. إذ حيثما حلّ الخوف ارتحلت المحبّة. وحيثما حلّت المحبّة ارتحل الخوف.

وربّ لا تحبّونه كيف تؤمنون به وتعبدونه؟

مشكلة المشاكل

ما قامت مشكلة في العالم واستعصى حلّها على الناس إلّا تدخّل الزمان فحلّها. حتّى بات الناس ينسبون إلى الزمان قوى لا ينسبونها إلى الله. فالله قد يعاقب فيجرح. ولكنّ الزمان يمرّ بيده الرفيقة على الجراح فتلتئم. والله يبلو الناس بالحزن والشدّة والموت. إلّا أنّ الزمان لا يلبث أن يبدّل الحزن فرحًا. والشدّة فرجًا، والموت حياةً. وإن هو لم يفعل ذلك بالتمام فحسبه أن يسدل عليه ستارًا من النسيان. والله قد ينزل بالأرض الزعازع والأعاصير والزلازل، وبالناس الأوبئة والمجاعات والحروب. فينبري لها الزمان بجيوشه الجرّارة من دقائق وساعات وأيّام وسنين وقرون وإذا بالأرض وجهها مشرق مطمئنّ وجميل لا تشوّهه بثور أو كلوم، وإذا بالناس يسرحون عليه ويمرحون، وأجسامهم صحيحة، وبطونهم ملأى، والسلم بين أيديهم، وعلى شفاههم وفي محاجرهم.

حقًّا إنّ الزمان ساحر وإنّه لحلّال المشاكل!

تموت والدة عن وليد ابن ساعة أو بعض الساعة. وقد يكون له إخوة وأخوات لا يتجاوز أكبرهم الخامسة من عمره، ووالد كسول أو مقعد أو ضرير. فيقول الناس: يا لها من داهية عمياء، ويا ويل هؤلاء الصغار مَن ينهض بهم إلى الشباب فالرجولة؟ ويا ويل هذا الوليد الجديد يفقد أمّه وما لمست شفتاه ثديها بعد. فمن يعوله وينميه؟ ولو أنّ سكّان المعمورة تجمّعوا على بكرة أبيهم لما قالوا غير ذلك القول ولما استطاع واحد منهم أن يتنبّأ لتلك الحفنة من الآدميّين بغير البؤس وأن يبصر لهم غير مستقبل أسود. ولكن الزمان، من حيث لا ندري ولا يدرون، ينهض بهم. فيأتيهم بالمعونة من أبواب نجهلها كلّ الجهل. وإذا بهم رجال ونساء لهم وزنهم ولهم قيمتهم. وقد يبلغ بعضهم، أو كلّهم، قمّة المجد بين أبناء جنسهم. فيقول الناس: إنّ الزمان حلّال المشاكل.

ويقضي قائد عظيم في حومة الوغى فيدبّ الذعر في جيشه ويتهلّل العدوّ قائلًا: «لقد مات خصمنا الألدّ. فالنصر لنا». ولكنّ الزمان قد يخلق من جنديّ مجهول قائدًا يحلّ محلّ القائد العظيم. فيمشي برجاله إلى النصر ويمشي العدوّ المتهلّل إلى الانخذال فالهزيمة. ولا الجنديّ المجهول يعلم

ولا رجاله ولا عدوّه يعلمون من الذي أعدّه للقيادة ومتى وكيف. ويقول الناس: إنّه الزمان حلّال المشاكل.

وينتقل إلى جوار ربّه نبيّ أنفق حياته مجاهدًا ليخلق أمّة ويطلق في الأرض رسالة. فتسري البلبلة بين تبّاعه وأنصاره. ويفرح أضداده قائلين: «لقد مات النبيّ. وبموته ستموت أمّته وتندثر رسالته». ولكنّ الزمان الساحر يأتي الأمّة والرسالة بإكسير الحياة على يد رجال ونساء كثيرين وفي ظروف ما كان النبيّ ولا تبّاعه يحلمون بها. فيمتدّ ظلّ الأمّة في الأرض وتنتشر الرسالة بين الأمم. فيقول الناس: إنّه الزمان حلّال المشاكل.

وتبلغ دولة أوج عزّها. فكلمتها بتّارة، وسيفها قهّار، وإرادتها من فولاذ. وتسوّل لها كبرياؤها إذلال جيرانها وإخضاعهم لسلطانها. فلا تشكّ ولا جيرانها يشكّون في أنّها ستنال ما تريد. ولكنّ الزمان يخوض الحرب ضدّها، فيردّها منكّسة الأعلام، ممزّقة الصفوف إلى ديار مهشّمة وأرض معقّمة. فيقول الناس: إنّه الزمان حلّال المشاكل.

مَن مِن الناس لا يذكر في حياته وحياة غيره مشاكل بدت في وقتها أصعب حلًّا من تسبيع الدائرة؟ فلا العقل بناجع، ولا السحر بمجدٍ، ولا الصوم والصلاة بكاشفين ولو جانبًا من القناع. فكأنّ تلك المشاكل الجبال الراسية لا تدكّها العواصف، ولا تزعزعها الزلازل، ولا تقتحمها رِجل، ولا يتسلّقها جناح. والتاريخ إن حفل بشيء فبالمشاكل التي تعقّد حلّها إلى حدّ أن دفعت بالناس ذات اليمين وذات اليسار فأصيبوا بما يشبه الجنون – أو هو أقصى درجات الجنون – وراحوا يبغون حلًا في المكائد ينصبونها بعضهم لبعض، وفي الحروب، وفي الحيل يحتالونها على الطبيعة. فما وفّقوا إلى الحلّ الذي يبتغون. ولكنّ البشريّة ما تبرح بشريّة. والمشاكل التي اعترضت سبيلها حتّى اليوم قد أصبحت أخبارًا في الكتب وعبرًا لقوم يعتبرون. إنّما الناس لا يعتبرون. فيقولون: إنّ الزمان حلّال المشاكل.

أصحيح أنّ الزمان يحلّ المشاكل؟ لئن صحّ أنّه حلّال المشاكل صحّ كذلك أنّه خلّاقها. وكيف للزمان أن يخلق مشكلة أو أن يحلّ مشكلة وما هو بذي لبّ أو بذي وعي ووجدان؟ إنّما الزمان شاهد أخرس، أعمى أصمّ. وإنّما هو الرقّ يخطّ عليه الكون كلّ حركة من حركاته. فلو لم تكن حركة لما كان زمان. والإنسانيّة بعض من الكون. وهي ذات لبّ ووعي ووجدان. وهي وحدها من بين سكّان الأرض – ولا أقول سكّان الكون – تستطيع أن تخطّ وأن تقرأ في السجلّ الذي هو الزمان. ولكن ما تخطّه وما تقرأه في ذلك السجلّ الرهيب يستحيل فهمه في معزل عمّا خطّته فيه سائر الأكوان. وفي ذلك مصدر المشاكل البشريّة كلّها. فنحن – والنسيان آفة ملازمة لنا – لا نزال قاصرين عن تفهّم ما خططناه أمس بأيدينا. فكيف بما خطّه الكون منذ أن كان الكون؟

ومن ثمّ فما نخطّه نحن بأيدينا إنّما نخطّ بعضه في اليقظة وبعضه في المنام. وبعضه عن وعي وبعضه عن غير وعي. فكيف لنا أن نذكر أو أن نعي ما خططناه ونحن في ذهول عن أنفسنا وعن العالم من فوقنا ومن تحتنا ومن حوالينا؟

قد يكون ما خططناه ونخطّه عن وعي وعن غير وعي في سجلّ الكون حكمًا على أنفسنا بالموت. لأنّه منافٍ لسنّة الحياة. وإذ يأتينا الموت تأخذنا الرعشة والدهشة فنستغيث ولا مغيث. هكذا تولد الحروب وتنتشر الأوبئة وتتفاقم المشاكل من أشياء عملناها وأخرى نويناها أو اشتهيناها في السرّ أو في العلانية وما درينا يوم عملناها ونويناها واشتهيناها أنّها ستجرّ علينا الحروب والأوبئة والمشاكل. ولا نصيب للزمان في خلقها غير نصيب الشاهد وغير نصيب الورق في الكتاب من خواطر الكاتب ومقاصده. ثمّ لا نصيب له في حلّها غير نصيب الشاهد كذلك. أمّا الحكمة التي تتولّى حلّها فهي حكمة الكون بمجموعه لا بأجزائه. وهي حكمة الجسد الموزون يصاب بوجع في أذنه أو في رأسه أو في رجله فلا يلوم الأذن أو الرأس أو الرجل وحدها، ولا يقول لها: أنتِ جلبتِ الوجع لذاتك بذاتك فتدبّريه بذاتك. بل يقرّ أنّ الوجع وجعه وأنّه المسؤول عنه. فيجنّد كلّ قواه لمحاربته. ولا ينفكّ يحاربه حتّى يتغلّب عليه. أمّا نحن معشر الناس فما ذلك شأننا مع مشاكلنا. بل هو على العكس من ذلك بالتمام. فإن قامت مشكلة في الصومال – مثلًا – قلنا هي مشكلة خلقها الصومال فليحلّها الصومال. فلا نشعر أنّ مشاكل أيّ أمّة أو بلاد هي مشاكلنا إلّا إذا اقتربت منّا وهدّدت راحتنا وجيوبنا وأرواحنا.

ها هي مشكلة فلسطين ماثلة أمامنا. وهي اليوم ملء سمع العالم وبصره. وبالأخصّ تلك الدول التي لها علاقة بفلسطين أو مطمع فيها وفي جاراتها. وهناك من يعتقدها مشكلة أثارتها عبارة تلفّظ بها رجل مسؤول من رجال دولة معلومة. وهناك من يقول إنّ الذين خلقوها هم اليهود دون العرب. ومن يتّهم بها العرب دون اليهود. ومن يعزوها إلى دولة معلومة وإلى اليهود والعرب جميعًا. ذلك قول من السذاجة بمكان. فالواقع أنّ مشكلة فلسطين هي مشكلة العالم بأسره. ولا أعني أنّها اليوم شغل العالم الشاغل. بل إنّها وليدة تاريخ سحيق عاشه العالم حتّى اليوم، وأخطاء فادحة ارتكبتها الإنسانيّة وما تزال ترتكبها حتّى الساعة. فالمشكلة في أساسها ليست مشكلة أرض وبحر وسماء، ولا مشكلة شعوب وثقافات وأديان. بل مشكلة وطنيّ وأجنبيّ. وهي مشكلة الناس منذ أقدم العصور ومشكلة المشاكل في حياتهم. والذين خلقوها ما كانوا اليهود ولا العرب ولا الفرس ولا الروم ولا أيّ شعب من شعوب الأرض. إن الذي خلقها وما يبرح يتعهّدها بالماء والهواء والغذاء هو التفكير الأعوج والجهل المطبق. ذلك التفكير وهذا الجهل كان لهما ما يبرّرهما أيّام كان الناس يعيشون في الغابات والبراري، وأيّام كانوا قبائل رحّلًا تتقاتل في سبيل المراعي والمناهل. أمّا اليوم وقد اختلط حابل الناس بنابلهم، فدماء هذه الأمّة في تراب تلك، وبذار هاته في أرحام هاتيك! أمّا ويدا كلّ

شعب في جيوب كلّ الشعوب، وفمه على آذانها، وفكره على اتصال دائم بأفكارها؛ أمّا والتجارة والطيّارة والراديو قد اجتازت الحدود واخترقت السدود فأيّ معنى بعد لقولنا: وطنيّ وأجنبيّ؟

لعمري لو كان للأرض أن تنطق وسألها سائل عن الماشين على ظهرها والعائشين من جودها أيّهم الوطنيّ وأيّهم الأجنبيّ لما أجابت بغير القهقهة العالية – قهقهة السخرية اللّاذعة. كيف يكون أجنبيًّا عن بقعة من بقاع الأرض مَن جُبل من تراب الأرض؟ بل كيف يكون «أجنبيًّا» عن أيّ مجموع من الناس مَن يحيا بحياة الناس ويموت بموت الناس؟ أفي الحياة وطنيّ وأجنبيّ؟ أم في الموت قريب وغريب؟ ومَن مِن الناس يدري إلى أيّ حدّ هو مدين بما تملك يداه، وتبصر عيناه، وبما يملأ جوفه ويكسو بدنه، وبما في قلبه وفكره، لهذا الإنسان أو لذلك وإن يكن من الأسكيمو أو من سلالة أفلاطون؟

لقد قفزت الحربان الأخيرتان بالناس قفزة مارد. وذلك بما نتج عنهما من تداخل وتمازج بين الشعوب، وعبث بالتخوم والمقاييس، ومن اختراعات واكتشافات لو أحسن الناس استعمالها لاقتربوا مسافة ذات بال من السماء التي ما برحوا يحلمون بها ويمنّون النفس بالوصول إليها. إلّا أنّهم ما قفزوا قفزة إلى فوق حتّى قفزوا قفزات إلى أسفل. فهم بأجسادهم في القمّة وبأفكارهم في القاع. وتفكيرهم ما يزال أقرب إلى غرائز ابن الغاب والصحراء منه إلى تفكير من سخّر البرق والأثير لخدمته واتّخذ من الهواء بساطًا لرجليه. فتعلّقهم اليوم بالتخوم والأصباغ الزائفة كصبغة «الوطنيّ» و«الأجنبيّ» هو أشدّ منه في كلّ يوم. وهم لا يفقهون أنّهم بعملهم ذلك يحتّمون على أنفسهم أن يعيشوا «أجانب» في أرض ما وُجدت إلّا لتكون موطنًا للجميع. فما قولكم في بلد سكانه مليون أو بعض المليون يعيشون عيشة «الأجانب» بين ألفَي مليون من الناس؟ حقًّا إنّها لوصمة شنعاء على جبين البشريّة، وإنّها لهزيمة نكراء للإنسان من وجه الأرض، ومن وجه ربّه، ومن وجه أخيه الإنسان؛ وإنّها العشّ الذي فيه تبيض وتنقف ضغائن الناس وأحقادهم وحروبهم. فما أبعدهم عن السلم الذي به يتشدّقون وله يطبّلون ويزمّرون!

إنّ مشكلة فلسطين لفقرة من سلسلة عديدة الفقار وقد كتب على كلّ واحدة منها: «أجنبيّ». ذلك هو العمود الفقريّ الذي منه تتفرّع جميع مشاكل الناس. ولا سبيل إلى حلّ واحدة منها حلًا لا رجوع عنه إلّا بقصم ذلك العمود. حتّى لا يكون في الأرض أيّ إنسان «أجنبيًّا» في أيّ بقعة من الأرض. وحتّى لا يبقى في الناس إنسان غريبًا عن أيّ إنسان. وإنّه لمن أكبر الخير للناس لو أنّهم تولوا قصم ذلك العمود بأيديهم. إذن لأدركوا أيّة نبعة إلهيّة هي النبعة التي هم منها. وإذن لأعلنوها حربًا شعواء لا بعضهم ضدّ بعض، بل كلّهم ضدّ ما من شأنه أن يعكّر عليهم سلامهم وصفاء نبعتهم وأن يعوقهم في سيرهم إلى الانعتاق من الحواجز والحدود والتمتّع بجمال الإخاء المقدّس وقدسيّة الأبوّة المشتركة.

إلّا أنّ الناس لا يدركون وسيمضون يحلّون مشكلة قديمة بخلق مشاكل جديدة إلى أن يتعطّف الزمان – حلّال المشاكل – فيقصم سلسلة مشاكلهم الفقريّة. أمّا كيف يقصمها ومتى – أبالنار والدمار؟ أبعد جيل أم بعد ألف جيل؟ – فعلم ذلك عند ربّي وربّكم وربّ الزمان.

على بِساط أبيَض

أطلّت شمس كانون الثاني – يناير – من فوق صنّين فخرجت أتقبّل سلامها وألقي عليها سلامي. وكانت الأرض مفروشة ببساط من زَبَد البحر وقد شدّ الصقيع لحمته وسَداه فبان درعًا من لجين. وكانت السماء مرآة مقعّرة جلاها الصقيع فماؤها أصفى من ماء عين الرضيع.

ما كدت أرسل نظرة خاطفة إلى الجبال المتشامخة، المتقاعسة، الحاملة على مناكبها القبّة الزرقاء، حتّى وجدتني، وعصاي في يدي، أجري على البساط الأبيض أمامي جري الحالم في حلمه وراء طيف عزيز كريم. ولو أنّ سائلًا سألني: إلى أين؟ لما أحَرْت جوابًا. فما كنت أسعى إلى نقطة بعينها ولا إلى غاية أعرف ما هي. وجلّ ما في الأمر أنّ ذلك المدى الأبيض، وقد تبرقع برشاش من أشعّة الشمس، كان يجذبني إليه بألف جاذب من السحر والفتنة. وأضعفها أقوى من أن يعانَد.

ها أنا أمرّ بآخر بيت من بيوت القرية التي كانت مسقطًا لرأسي وما تزال تؤويه. وإذ أبلغ حدود العراء الأشيب حيث لا إنس ولا جنّ أتوقّف عن السير وألتفت إلى الوراء فأبصر المساكن القرويّة منثورة على أضالع التلال وفي منحنياتها. فأستغرب أشكالها وألوانها. بل أستغرب وجودها في ذلك البلقع الأبيض فكأنّني ما أبصرتها من قبل في حياتي ولا عرفت أحدًا من ساكنيها. وكأنّها حيث هي ثآليل ودمامل في وجه صبيح سنيّ.

ثمّ يخيّل إليّ أنّ الدخان المتصاعد من بعض تلك المساكن ألسنةٌ تبثّ شتّى المشاعر والهواجس. فلسانٌ ينمّ، وآخر يشكو الفاقة، وثالث يشكو التخمة، ورابع يتبجّح، وخامس يعاتب الله، وسادس يحوك المكائد، وسابع يصلّي صلاة المنسحق، وثامن صلاة المعربد، وتاسع يرسم الخطط لإصلاح الكون وعاشر يقول: باطل الأباطيل. كلّ شيء باطل – هذا يبارك وذلك يلعن. هذا يؤكّد وذلك ينفي. هذا يلسع وذلك يلثم – شأن ألسنة الناس في كلّ زمان ومكان.

ألا بُعدًا لهذه المساكن والمدافن. وإلى العراء. إلى العراء الأبيض!

وأين الطريق؟ لقد غابت معالمه فما يكاد يتميّز من بقيّة الأرض بشيء. وإنّه لشعور لا يوصف أن تجري كيفما شئت وأينما شئت من غير أن تتقيّد رجلاك وعيناك بفسحة ضيّقة من الأرض تدعى الطريق. فكيف بك إذا كنت تجري على بساط من زَبَد البحر المتجمّد؟

رحت أهيم على وجهي. فآنًا أصعد وآونة أهبط. والثلج يخشخش تحت قدميّ خشخشة فيها من الألحان أعذبها وأطربها؛ والهواء الصّقِعُ يدخل صدري فتصطفق له رئتاي جذلًا وأحسّني كالمحمول على أجنحة، والبساط الأبيض أمامي يتلألأ بأشعّة هي السحر بعينه. فكأنّ ماردًا بذر الأرض حجارة كريمة ثمّ صوّب عليها الشمس فاشتعلت بكلّ ألوان قوس قُزَح. حتّى إنّني خشيت على عينيّ تبهرهما تلك الألوان المشعشعة وتذهب بنورهما. فكنت بين الفينة والفينة أرفعهما إلى زرقة السماء، أو أمضي بهما بعيدًا إلى خضرة الصنوبر والسنديان، أو إلى شواهق الصخور الغبراء التي ما استطاع الثلج أن يلفّها كلّها بوشاحه.

وأين أنا؟ – إنّي لأعرف هذه السنديانة العتيّة المطلّة على الوادي. فَلَكَم سندت ظهري إلى جذعها الجبّار، ولَكَم تفيّأتُ ظلَّها الوارف. بل لَكَم أكلتُ من عنب الكرم الذي ما فتئت تهدهده بأغانيها منذ أن غُرسَت جفناته في التراب. وإذنْ فأنا في بقعة من الأرض جوّادة بالخير والبركات. فهي بقعة مقدّسة ومعمل عجيب غريب للعجائب والغرائب. فالذي تحت قدميّ ليس ثلجًا لا أكثر. بل إنّ تحت الثلج ترابًا، وفي التراب جذورًا، وعلى وجه التراب قد تمدّدَتْ فروع كثيرة وأغصان كثيرة. وهذه الجذور والفروع والغصون لا تعرف الراحة ولا تأخذها سِنَة. فهي تعمل حتّى في هذه الساعة. وتعمل في سكينة الواثق من جمال عمله. فلا صخب، ولا قعقعة، ولا تبجّح، ولا ادّعاء، ولا خيلاء.

ألا ليت لي أذنًا تسمع دبيب عصير الحياة في عروق الدوالي المتدثّرات بالثلج تحت قدميّ! ألا ليت لي عينًا تبصر حُبيبات العنب تتكوّن الآن في أحشائهنّ لتنتظم فيما بعد عناقيد مدلّاة من أذرعهنّ ومن أصابعهنّ!

أفٍ لنا ما أكثر ما نتوهّم أنّنا نبصر ونسمع وما أقلّ ما نسمع في الواقع ونبصر!

ها أنذا أمرّ في وسط بستان من الأشجار المثمرة. فلا أبصر من تلك الأشجار غير أفنان عارية لفّها الصقيع بسكينة خرساء فكأنّها الشموع في هيكل مهجور. أمّا الجذوع والجذور فقد حجبها الثلج والتراب عن سمعي وعن بصري. فلا رسم ولا صوت. ولكنّها أبعد ما تكون عن سكتة الموت. فهي تزخر بالحياة والحركة. ولو كانت لي العين النقّاذة والأذن المرهفة لأبصرت الكرز والخوخ والتفّاح تتكوّن على مهل في جذورها ولسمعت الأوراق تصفّق للنسائم العابثة بأغصانها. ولكنّ على عينيّ غشاوة فوق غشاوة. ولكنّ في أذنيّ سطامًا فوق سطام. فأفٍ ثمّ أفٍ لعين لا تبصر أنّها

لا تبصر. وأفٍّ ثمّ أفٍّ لأذن لا تسمع أنّها لا تسمع. وتباركت الأرض التي تحملني. فهي أرض مقدّسة.

وها أنذا في وسط حقل منبسط الوجه منفرج الأسارير. لقد عرفته من تلك الصخرة العالية المستديرة القائمة عند حدّه الشرقيّ. ففي الخريف الغابر جلست في ظلّها أتحدّث إلى صاحب الحقل وقد راح ابنه الأكبر يبذر الأرض قمحًا ثمّ يدفن البذار بمحراث يجرّه ثوران فتيّان أسودان. إنّ تحت قدميّ لمصنعًا آخر للعجائب والغرائب. فبذور تموت لتحيا، وجذور متجمّدة ترضع الدفء والعافية من صدور التراب والثلج والحصى. وهذا البساط الأبيض ليس أكثر من دثار تدثّرت به إلى حين ربوات من السنابل والأعشاب والأشواك والأقاحي وكلّها سيدرج قريبًا إلى الهواء الطلق – إلى النور – ليغدو فيما بعد متعة للعين والأنف والأذن، ثمّ لحمًا وشحمًا ودمًا وعظمًا وعضلات وعافية وحركة في آلاف آلاف الأبدان من بشر وبهيمة وطير وحشرات وهوامّ.

وإذنْ، فهنا كذلك معمل للعجائب وأرض مقدّسة. وقد كان عليّ أن أنزع نعليّ. ولكنّني خشيت على رجليّ من أنياب الصقيع. فعفوك أيّتها الأرض. عفوك يا منبع الخير والطهر والقداسة. لأنتِ أكرم الأمّهات. ولنحن أعقّ البنين. وأيّ الجود جودك؟ وأيّ الشحّ شحّنا؟ – جودك جود القلب نقّته المحبّة وصوّنه الإيمان. وشحّنا شحّ العقل يحتلّه البغض، ويحميه الشكّ، ويقوده الخوف، ويحدوه الحذر. ولولا جودك لما كان لنا وجود. ولولا شحّنا لكنّا ملائكة وفوق الملائكة. تجودين عفو الخاطر وبكلّ ما لديك لكلّ ما عليك ومَن عليك. ولا نجود إلّا مكرهين، وإلّا بمقدار، وإلّا بحساب. ويا ليت ما نجود به كان من خلقنا ومن صنع أيدينا. ولكنّه منك. ونحن إذ نمسكه عن المحتاجين إليه من بنيك إنّما نمسكه عنك. وذلك منتهَى البخل ونكران الجميل.

أمّاه، يا أقدس الأمّهات، ويا أخصب العذارى، ويا أحنّ الحاضنات، ويا مرضع النسر والبغاث، والبعوضة والأسد، والبنفسجة والعوسجة، والطود والحصاة، والبحر والساقية، والنحلة والثعبان، والخنفساء والإنسان – هوذا رضيع ما سَكِرَ بَعدُ بشيء سكره اليوم بجمالك وجودك ومحبّتك. فهو من أمّ رأسه حتّى أخمصيه تسبحة لتحنانك، وأنشودة لسخائك، وقربان لما على سطحك وما في أحشائك من خلائق كلّها عجيب مثلما هو عجيب، وكلّها شريك له في لحمك ودمك، وفي أنفاسك وأقداسك.

ههنا على هذا البساط الأبيض يا أمّاه – على صدرك الرحب وفي نور هذه الشمس الحنون والسماء السّمحاء وتحت أنظار هذه الجبال الحالمة بأقداس الحياة التي لا تموت، أحسّ روحي وجسدي يتعانقان ويتآخيان مع كلّ ما عليك وفي أحشائك الخصبة وأجوائك الفسيحة من أرواح وأجساد.

ههنا أريد أن أرفع صوتي صارخًا في إخواني الناس: هلمّوا يا ذوي الوجوه السود والحمر والصفر والسّمر والبيض. هلمّوا أيّها الرازحون تحت أوقار ما في قلوبهم من حسد وحقد وضغينة. هلمّوا أيّها الغارقون في رغوة المطامع والمشكلات. هلمّوا أيّها المحوّلون دسم الأرض سُمًّا، وجودها شحًّا، ومحبّتها بغضًا. هلمّوا وانثروا على هذا البساط الأبيض كلّ ما في قلوبكم من سود الضغائن والأحقاد والسموم والمطامع والمشكلات. لعلّكم إذ تبصرون سوادها تتنكّرون لها، ومن أنفسكم ومِن الأرض أمّكم تخجلون. ثمّ لعلّكم تتعلّمون من الأرض عن السكينة المبدعة والسخاء بغير مَنّ والمحبّة بغير حدّ وقيد كيف تكون. ولعلّكم إذ ذاك إلى رشدكم تثوبون.

في مَوكب التجدُّد

يتجدّد العالم في كلّ يوم، بل في كلّ نبضة قلب ورفّة جفن، ولكنّه تجدّد شامل وخاطف إلى حدّ أنّ حواسّنا البطيئة والبليدة لا تكاد تشعر به إلّا بعد أيّام أو أعوام أو أجيال. فنحن لا نحسّ دبيب البقاء وزحف الفناء في أجسادنا من ساعة لساعة ومن يوم ليوم، ونمضي نقطر الثواني إلى الثواني، والفصول إلى الفصول، واهمين أنّنا اليوم عين ما كنّاه أمس، وسنكون غدًا عين ما نحن اليوم. إلّا إذا ابتلينا بمرض من بعد عافية أو حظينا بعافية من بعد مرض، وإلّا إذا ابيضّ شعر كان أسود، وارتخى ساعد كان مفتولًا، وغام بصر كان جليًّا، وتناثرت قواضم كانت حادّة، أو نحو ذلك من الأحداث التي تطرأ على أجسادنا فإذ ذاك نشعر أنّنا قد تغيّرنا.

إن تكن تلك حالنا مع أجسادنا – وهي أقرب الأشياء إلينا – فحالنا مع الأكوان من فوقنا ومن تحتنا وعن جانبينا أغرب وأعجب. وها هي ذي الأرض تنهب بنا الفضاء نهبًا فلا نشعر بحركتها على الإطلاق. ولولا تناوب الليل والنهار، ولولا تعاقب الفصول، لحسبنا أن ليس في الكون من حركة إلّا حركتنا وإلّا حركات الكائنات التي تشاطرنا الأرض. ومن ثمّ فالتغيّر المستمرّ في أحشاء الأرض وفي أديمها يكاد يكون أبعد من متناول حواسّنا. فالجبال تبدو لأبصارنا ونحن في الشيخوخة كما لو كانت عين الجبال التي عرفناها ونحن في ريعان الصبا والتي عرفها أسلافنا منذ آلاف السنين. وكذلك الأودية والأنهار والبحار، إلّا إذا زلزلت الأرض زلزالها فاندكّت نجاد وارتفعت وِهاد، وجفّت أنهار وتفجّرت أنهار، ولفظ البحر جزيرة أو ابتلع جزيرة. فحينئذ ندرك أنّ وجه الأرض قد تغيّر.

لو أنّنا ما كان لنا من هادٍ في حياتنا غير الحواس وغير الغريزة لَمَا كان من فرق بيننا وبين البهيمة، ولقبلنا الأشياء على ظواهرها، فما خطر لنا ببال أنّ خلف الظواهر بواطن، ولا عرفنا أنّنا والعوالم من حولنا في تغيّر مستمرّ، ولا سألنا أنفسنا عن ذلك التغيّر هل هو يتبطّن عن قوّةٍ تُغَيِّر ولا تَتَغَيّر، وتُحرّك ولا تَتَحرّك، وما هي تلك القوّة، ثمّ هل لها غاية وما هي تلك الغاية؟

إلّا أنّ القدرة التي انتشلتنا من حظيرة البهيمة ورفعتنا إلى مستوى الإنسان ما تركتنا عالة على الغريزة ولا ألعوبة للحواسّ. بل أودعتنا قوى وجهّزتنا بأسلحة إذا نحن توصّلنا إلى فهمها كلّ الفهم وأتقنّا استعمالها على أتمّ وجه، تحرّرنا بها من ربقة الغريزة ومن خداع الحواسّ، ونفذنا من ظواهر الأشياء إلى بواطنها فأدركنا سرّ التغيّر والتجدّد فيها والغاية من كليهما. وإذ ذاك تحكّمنا في الأشياء بدلًا من أن تتحكّم الأشياء فينا. ومن أبرز تلك القوى وأمضى تلك الأسلحة – الفكر والخيال والإرادة.

ما يزال الإنسان قريب العهد بالبهيمة وحديث التمتّع بالفكر والخيال والإرادة فما أتقن استعمالها بعد، وعلى الأخصّ الإرادة، فهي إلى اليوم أضعف الأسلحة في يده. إلّا أنّه منذ أن اهتدى إلى الفكر والخيال والإرادة أعلنها حربًا شعواء على الحواسّ البطيئة، البليدة، الخدّاعة، وعلى الغريزة العابثة، المستبدّة، القاسية. وهو ما برح من حربه في البداية. ولكنّها بداية بارعة تبشّر بنهاية رائعة.

أمّا الحواسّ فقد حطّم الإنسان بفكره وخياله جانبًا لا يستهان به من قيودها وحدودها. فالأرض ليست مسطّحة وثابتة، والشمس لا تدور حول الأرض، والإنسان اللاصق بالتراب لا يستحيل عليه امتطاء الهواء ولا اقتناص البرق الشارد في الفضاء، ولا أن يرسل صوته عبر الصحارى والبحار، والجماد ليس عديم الحركة والحياة. فالأكوان على رحابة مداها وعديد أشكالها وألوانها كهيربات لا تنفكّ تنبض بالحياة والحركة، وهي أدقّ من أن تتناولها الحواسّ الخشنة ولكنّها تتآخى وتتماسك وتتكاثف هنا وهناك وهنالك فتتّخذ أشكالًا وألوانًا تبصرها العين وتسمعها الأذن وتلمسها اليد. وإذنْ فالكون في حركة دائمة وفي تجدّد سرمديّ.

حقًّا إنّ ما أحرزه الفكر والخيال في حربهما مع الحواسّ حتّى الآن لفتح مبين ونصر عظيم. ولكنّه سيبدو تافهًا وضئيلًا إزاء ما سيحرزانه من النصر في المستقبل البعيد. فحربهما حرب لا هدنة فيها ولا هوادة. ومن الأكيد أنّهما لن يكفّا عن النضال إلّا من بعد أن يحطّما آخر قيد من القيود التي تفرضها علينا الحواسّ. ويا ليته كان في مستطاعنا أن نقول هذا القول في حربهما مع الغريزة.

إنّ حرب الإنسان مع الغريزة لحرب فظيعة، هائلة، طويلة، قاسية. ذلك لأنّ الغريزة متأصّلة في دم الإنسان ولحمه وعظمه تأصّلها في النبات وفي الحيوان. فليس يكفينا في حربها فكر وخيال يرسمان لنا الخطط: لا تقتل. لا تسرق. لا تزنِ. لا تقابل الأذيّة بالأذيّة. أحبّ من أبغضك. بارك الذي يلعنك وعامل بالحسنى الذين يسيئون إليك. لا. ليس يكفينا في حربنا مع الغريزة أن نخلق بالفكر والخيال قيمًا إنسانيّة تعاكس القيم الحيوانيّة. بل لا بدّ لنا من إرادة نيّرة، صلبة، تتولّى حراسة تلك القيم، وتحفظها من الفساد، وتردّ عنها الهجمات العنيفة التي ما تفتأ الغريزة تشنّها

عليها. لا بدّ لنا، إلى جانب الخيال الخلّاق والفكر المدبّر، من إرادة فاهمة، منفّذة. وهذه، لسوء الحظّ، ما تزال عند سواد الناس طفلة مقنّعة مقمّطة لا يصعب على الغريزة العاتية أن تكمّ فاها بنبرة أو بحركة. ولكنّها طفلة قابلة للنّموّ. ونموّها بطيء إلى حدّ أنّنا نكاد نقنط منه. ولولا أنّها في بعض أفراد الإنسانيّة بلغت أشدّها فجاءت بالعجائب لكان أمل الإنسان بالتغلّب على الغريزة ضربًا من التعليل والتخدير.

لقد كان من انتصارات الفكر والخيال الباهرة في عالم الحسّ، ومن التواء الإرادة وتقهقرها في عالم الغريزة، أن راح أكثر الناس ينعون على الإنسان هزيمته في حربه مع غرائز البهيمة فيه. فيقولون إنّه ما تقدّم خطوة بفكره وخياله حتّى تراجع خطوات بأخلاقه. فهو في طمعه وجشعه وقساوته وظلمه وتكالبه على الحطام وتهالكه في سبيل الملذّات الحيوانيّة حيوان وأحطّ من حيوان. ولكنّهم ينسون أو يجهلون أنّ ما يستطيعه الفكر والخيال في حربهما مع الحواسّ لتوسيع آفاقها وتبديد أوهامها لا تستطيعه الإرادة في حربها مع الغريزة لكبح جماحها والسموّ بها من القيم الحيوانيّة إلى الإنسانيّة. فسيّان عند الغريزة أكانت الأرض مسطّحة أم مستديرة، وسيّان عندها أمشت إلى غاياتها في الظلام أم في ضوء الكهرباء، وعلى الأرض أم في الهواء. وسيّان أكان الجماد بلا حياة أو كان يعجّ بالحياة. أمّا أن تصوم عن الطعام وهي جائعة والطعام موفور لديها، وأمّا أن تُصفع فتصفح، وأن تموت ليحيا غيرها، وأن تعفّ عن اللذّة الجنسيّة وشهوتها مشبوبة، وأن تقرّ بحقّ غير القوّة، أمّا هذه الأمور وكثير من نوعها فلا تتعادل أبدًا ولا يمكن أن تتعادل في ميزان الغريزة التي لا تعرف حقًّا إلّا القوّة البدنيّة، ولا دافعًا على العمل إلّا اللذّة الحسّية، ولا ناهيًا إلّا الخوف من الألم.

إنّ للفكر والخيال أجنحة. أمّا الإرادة فتزحف زحفًا وئيدًا عند الأكثريّة الساحقة من الناس. فأيّ عجب إذ ذاك في أن تعاني ما تعانيه من المضض في حربها مع الغريزة، وأن يكون تقدّمها في الميدان بطيئًا إلى حدّ أنّه لا يكاد يكون محسوسًا إلّا على مدى أجيال طوال، وإلّا في نخبة من الآدميّين الذين تجنّحت إرادتهم فكانوا – وما برحوا – حداة القافلة الإنسانيّة وهداتها؟

قصارى القول إنّنا نعيش في عالم دأبه التجدّد. والتجدّد لا يكون بالبناء دون الهدم، ولا بالهدم دون البناء. ولكنّه يقوم بكليهما. فنحن لا نستطيع أن نبني بيتًا من حجارة كثيرة إلّا إذا حطّمنا حجارة كثيرة. ولا أن نجهّز البيت بالأبواب والأثاث إلّا إذا أجهزنا على حياة أشجار كثيرة. وأجسادنا لا تقتات إلّا بأشياء نميتها، ولا تنمو بغير الانحلال. فهل من غاية وراء هذا التجدّد المستمرّ وما هي؟

ما شككت يومًا في وجود الغاية. والغاية التي يدلّني عليها فكري وخيالي هي أنّ هذا الكون الجيّاش بالحركة والحياة إنّما يتحرّك من اللّاوعي إلى الوعي، من الجهل إلى المعرفة، من الحدود

والقيود إلى حيث لا حدود ولا قيود، من الحسّ إلى ما وراء الحسّ، من الخير والشرّ إلى ما فوق الخير والشرّ، من الجزئيّات إلى الكلّيّات، من الحقّ الذي لا يقوم بغير القوّة إلى القوّة التي لا تقوم بغير الحقّ، من الغريزة المخلوقة العمياء إلى الإرادة الخلّاقة المبصرة.

إنّه لموكب هائل رائع ساحر هذا الذي تؤلّفه الأكوان في طريقها إلى الانفلات من حدود الزمان والمكان، والانعتاق من قيود الحسّ والمادّة. إنّه لموكب الحياة التي تأبَى الحصر في الأقفاص وإن تكن من الذهب والياقوت والألماس. أما تراها في قطرة الماء كيف تغدو بخارًا، وفي الحطبة كيف تصبح نارًا، وفي البذرة الميتة كيف تنفض عنها الموت لتتعالى إلى السماء نبتة هيفاء أو دوحة وارفة، وفي بيضة الطير كيف تنقف منها كائنًا يمتطي الريح ويسوقها بالأغاريد، وفي نطفة الإنسان كيف تنطلق منها جسدًا عجيبًا غريبًا، وفكرًا يجوب الأرض والسماء، وخيالًا يطوي مهامه الآزال والآباد، وإرادة تسعى بغير انقطاع إلى التسلّط على كلّ منظور وغير منظور؟

أجل. هي الحياة المجسّدة تسعى إلى الانفلات من أجسادها. وهي ما تجسّدت إلّا لتعرف ذاتها. لذلك لا تنفكّ في حركة دائمة وتجدّد سرمديّ تسوقها الغريزة العمياء أوّلًا والإرادة المبصرة فيما بعد. والإنسان – ذلك الحيوان المستحدَث من جماد – ما يزال في بدء عهده بالإرادة المبصرة وفي بدء صراعه مع الغريزة العمياء. وصراعه سيكون قاسيًا ومرًّا وطويلًا. ولكنّه لن يلقي سلاحه حتّى تكون له الغلبة، وحتّى تنساق غريزته لإرادته فيخلق عالمًا يليق بعظمته وبجمال الحريّة التي يشتاقها بكلّ قلبه وفكره وخياله.

بشريَّة جديدة

تسير الأكوان سيرها الحثيث من الانغلاق إلى الانطلاق مدفوعة بقوّة الحياة الكامنة في كلّ ذرّة من ذرّاتها. وقوّة الحياة هذه، وإن تنوّعت مظاهرها المحسوسة إلى ما لا نهاية له، هي هي في كلّ شيء وفي كلّ مكان وزمان. نظامها واحد، وطريقها واحد، وهدفها واحد، وهي التي في اندفاعها إلى الانطلاق من السدود والحدود والقيود تُغيّر ولا تتغيّر، وتُجدّد ولا تتجدّد، وتجعل للأشياء بداية ونهاية ولا بداية لها ولا نهاية. وما دامت دون مستوى الوعي فهي الغريزة. ومتى بلغت الوعي فهي الفكر والخيال والإرادة. أمّا متى تجاوزت الوعي فهي الألوهة.

والإنسان، كما أراه، ما يزال على الحدود ما بين الغريزة وبين الفكر والخيال والإرادة. فبعضه حيوان وبعضه إنسان. فهو حيوان على قدر ما يحيا بغريزته. وهو إنسان على قدر ما يحيا بفكره وخياله وإرادته. وسيبقى بعضه حيوانًا وبعضه إنسانًا إلى أن ينفذ بفكره وخياله إلى نظام الحياة الشامل وغايتها الموحّدة، وإلى أن تكون له الإرادة الواعية الفاهمة، يسير بها مع النظام لا ضدّه، وإلى الغاية لا إلى غيرها. ويسير بخطى لا تردّد فيها ولا التواء. وإذ ذاك فهو الإنسان الإنسان، وفي مستطاعه أن يخلق من نفسه لنفسه ذلك العالم الذي ما برح يحلم به منذ أن عرف العذاب والشقاء والموت.

أمّا والفكر فينا ما يزال نسمةً لا إعصارًا، والخيال ثقابًا لا برقًا، والإرادة خيزرانةً مرضوضة لا سنديانةً عتيّةً، فنحن لا نملك القدرة على تجديد أنفسنا وتغيير العوالم من حولنا حسبما نرتئي ونرغب. بل لا مناص لنا من مطاوعة المشيئة الكونيّة الشاملة التي ندعوها القدر. فحيثما طاوعناها عن فهم وعن رضا كان نصيبنا الهناء. وحيثما طاوعناها عن جهل وعن كراهية كان نصيبنا الشقاء. فهي الأمّ ونحن أطفالها. وهي المعلّمة والمهذّبة والمربّية ونحن تلاميذها. وهي المعيلة ونحن عيالها. ومثلما تستعين الأمّ في تنمية أطفالها، والمعلّمة والمربّية والمهذّبة في تهذيب تلاميذها، والمعيلة في إعالة عيالها بقوى كامنة فيهم على النموّ والفهم والتعاون، كذلك تستعين

الإرادة الشاملة في توجيهها الإنسان إلى غايتها بما في الإنسان من إرادة ومن قدرة على التفكير والتخيّل والفهم. فنحن نعاون القدر في كلّ مآتيه ومظاهره، عرفنا ذلك أم جهلناه. ومن حقّنا أن نتطلّع إلى اليوم الذي يصبح فيه القدر معاونًا لنا بدلًا من أن نكون معاونيه، بل خادمنا بدلًا أن نكون خدّامه.

حيثُ الفكر والخيال والإرادة هنالك المقدرة على الخَلق. وما الفكر والخيال والإرادة غير سلاح الحياة المنغلقة في كفاحها ضدّ الانغلاق، وفي اندفاعها نحو الانطلاق. وهذا الكفاح هو السبب الأوّليّ لكلّ ما نحسّه من تجدّد في الكون، ومن تغيّر مستمرّ في حياة البشريّة التي ليست سوى جانب محدود من الكون الذي لا يُحَدّ. والبشريّة لن تعرف الاستقرار الكامل حتّى تعرف الحرّيّة الكاملة، وحتّى تنطلق من كلّ حدّ وقيد.

نحن سائرون إلى الحرّيّة. ما في ذلك شكّ. ولكنّنا نسير بخطى وئيدة إلى حدّ أنّ من يرقب حركاتنا عن كثب يكاد يحسبنا ندور على أنفسنا، ويكاد يجزم أنّنا ما نبرح مكاننا. ولا عجب، فسرعة القافلة تقاس بسرعة أبطأ بعير فيها، وقوّة السلسلة تقاس بقوّة أضعف حلقة من حلقاتها. كذلك سرعة البشريّة وقوّتها. وأبطأ الناس وأضعفهم ما يزال أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان. فكيف نرجو للبشريّة تقدّمًا خاطفًا ونموًّا باهرًا؟ بل العجب العجاب أن تنجب البشريّة أفرادًا استطاعوا الانفلات من قيودها وراحوا يدلّونها على الطريق فما تصدّقهم، وإن هي صدّقتهم فلا تجد من فكرها وخيالها وإراداتها القوّة الكافية للّحاق بهم. ومن الخير لها لو هي صدّقتهم، ولو هي راحت تعمل يدًا واحدة وبكلّ ما فيها من قوة زاخرة على الالتحاق بهم.

إذنْ لجعلنا غاية البشريّة غاية الحياة وهي الانطلاق من كلّ انغلاق. وإذن لحملنا حملة شعواء على كلّ ما من شأنه أن يفصل الإنسان عن الإنسان وعن سائر الأكوان. فمحونا من قواميسنا كلمة «الوطنيّ» ونقيضها «الأجنبيّ». إذ كيف يكون «أجنبيًّا» عنّي مَن جهّزته الحياة بمثل ما جهّزتني وجعلته شريكًا لي في الكفاح وبسطت الأرض والسماء ميدانًا لي وله؟ كيف يكون «أجنبيًّا» في أيّة بقعة من بقاع الأرض من ليس أجنبيًّا عن التراب وعن الهواء وعن الشمس وعن نسمة الحياة التي بها يحيا كلّ ما في السماء وفي الأرض؟

وعندما لا يبقى في الأرض «أجنبيّ» بل يصبح الكلّ «وطنيّين» فقد زالت الحدود والسدود. فلا جوازات سفر، ولا جمارك، ولا قيود على تبادل الأفكار والبضائع، ولا شرائع تجعل من الأرض زرائب محصّنة ومن البشر بهائم تساق بالسوط والعصا، وتدرّب على النباح والنطاح، وتحقن بالكره لكلّ زريبة غير زريبتها وبالحذر من كلّ بهيمة لا تتّسم بسمة كسمتها. أليس من الخزي الذي ما بعده خزي والعار الذي ما فوقه عار أن يعامَل الإنسان معاملة البعير والحصان والحمار والكبش والتيس، فيوسم هذا القطيع من البشر بهذه السمة وهذاك بهاتيك مثلما توسم قطعان الماشية

سواء بسواء؟ أما كفى الإنسان سِمَة أنّه إنسان، وأنّه بتركيبه الجسدانيّ والنفسانيّ يتميّز أبدًا عن أخيه الإنسان وعن كلّ ما احتواه الكون من الأشكال والألوان؟

ومتى أتيح للناس أن يتخالطوا ويتعارفوا بغير حاجب أو رقيب ومن غير أن تكون فوق رؤوسهم سيوف مصلتة، سهل عليهم أن يخلقوا لغة يتفاهمون بها. فبشريّة خلقت مئات اللغات على مرّ العصور لا يصعب عليها أن تخلق لغة واحدة في جيل واحد. وإذ ذاك فما أقرب الإنسان من الإنسان، وما أجمل هذه الأرض مسرحًا نمثّل عليه جميعنا رواية الجهاد البشريّ ؛ بل ما أبدع الزمان رقًّا نسجل فيه فتوحات الفكر والخيال والإرادة في دنيا التعاون والتآخي، للحظوة بغبطة الخير والحقّ والحرّيّة!

أمّا الديانات البشريّة فإن عزّ توحيدها من حيث الطقس والعقيدة فلن يعزّ على الإنسان الطامح إلى الحرّيّة الخلّاقة أن ينبذ منها كلّ ما من شأنه أن يفصل الإنسان عن الإنسان وعن سائر الأكوان، وأن يعرقل خطاه نحو هدفه الأسمى. فكلّ دين لا يساعد الإنسان في حربه مع الغريزة الحيوانيّة ليس جديرًا بالإنسان. وكلّ دين يعمل على انغلاق الإنسان لا على انطلاقه ليس بالدين الذي يليق بنا أن نتّخذه نبراسًا لنا ودليلًا إلى الحرّيّة. ومن كانت الحرّيّة الخلّاقة هدفه من حياته شقّ عليه أن يدين بإله يذكي في قلوب عابديه نار الحقد على كلّ من خالفهم في طريقة عبادته.

إنّه لمن الشنار علينا أن تدعونا الحياة في كلّ نبرة من نبراتها وفي كلّ نبضة من نبضاتها إلى الانعتاق من القيود والسدود، وأن ترانا لا نحطّم قيدًا حتّى نخلق لأنفسنا قيودًا، ولا ندكّ سدًّا حتّى نقيم بأيدينا سدودًا. وحسبك أن تفكّر في عالم نحن فيه اليوم وأن تحصي ما خلقناه فيه من قيود وسدود لتعرف كيف أنّ الإنسان يكبّل نفسه بنفسه ثمّ يصيح بأعلى صوته: واحرّيتاه! وكيف للحرّيّة أن تسكن عالمًا مدجّجًا بكلّ أصناف السلاح ضدّ الحرّيّة؟ أليس من المضحك المبكي أن يطلب الحرّيّة بلسانه من أوصد قلبه وفكره وبيته وجيبه ضدّ كلّ ما من شأنه أن يقوده إلى الحرّيّة؟

والأغرب من ذلك أن تسمع إنسانيّة اليوم تطلب السلم بصوت واحد. كأنّ السلم كان يومًا من الأيّام هدفًا يرتجى لذاته وفي ذاته. فمتى يدرك الناس أنّ السلم ظلٌّ لا جسد، ونتيجة لا سبب. فحيثما الجسد هنالك الظلّ، وحيثما السبب هنالك النتيجة. والسلم، كالعافية، نتيجة لازمة لحياة جسديّة وفكريّة وعاطفيّة صالحة. والسلم ظلٌّ لجسد هو البشريّة المنطلقة من قيود الغريزة الحيوانيّة، ومن حدود العرق والجنس ومن سدود اللغات والأوطان والأديان.

تلك هي البشريّة الجديدة التي تتمخّض عنها بشريّة اليوم والتي لن يدركها هذا الجيل ولا الذي بعده إلّا بالخيال. ولكنّها آتية من غير شكّ. وهي حقيقة راهنة في ضمير الحياة التي دأبها التجدّد، والتي تأبَى الانحباس في أيّ سجن مهما يكن فسيحًا وبديع الهندسة.

وإنّي لتعروني قشعريرة إذا ما حاولت أن أصوّر أوجاع المخاض التي ستعرفها بشريّة نحن منها قبل أن تلد البشريّة العتيدة. مثلما تعروني رهبة إذا ما حاولت أن أتخيّل البشريّة الجديدة وما ستخلقه من العجائب والغرائب. فليس من حدّ لما يستطيع الإنسان خلقه إذا هو انصبّ بكلّ فكره وخياله وإرادته على عمل من الأعمال أو هدف من الأهداف، وما من هدف يليق بالإنسانيّة الموحّدة أسمى من التغلّب على غرائزها الحيوانيّة والانعتاق من القيود والحدود التي يفرضها عليها جهل الطفولة والحداثة وتأباها كرامة الشباب والرجولة.

أرضٌ جَديدة

لا بدّ من يوم تتوحّد فيه البشريّة فتغدو هذه الدول وهذه الدويلات التي يكتظّ بها سطح الأرض دولة واحدة لا منافس لها في الحكم والسلطان إلّا الطبيعة. وإذ ذاك فالقوى البدنيّة والروحيّة الهائلة التي تهدرها اليوم شعوب الأرض هدرًا في المحافظة على كيانها القوميّ والسياسيّ والاقتصاديّ أو في توسيع ذلك الكيان على حساب جاراتها القريبات والبعيدات تتحوّل جميعها من أسلحة هدّامة أثيمة إلى أسلحة بنّاءة كريمة. فهي هدّامة وأثيمة ما دام الإنسان يستعملها لامتهان كرامة أخيه الإنسان ولمزاحمته على لقمة يتبلّغ بها أو على ساعة من الهناءة يكشح بها غيوم المعيشة عن قلبه. وهي بنّاءة وكريمة عندما يلجأ إليها الإنسان ليبتزّ من الطبيعة خيراتها ويفضّ ما أُغلق عليه من أسرارها فيسخّرها لغاياته بدلًا من أن يكون مسخَّرًا لغاياتها، ويذلّلها لمشيئته بدلًا من أن يكون عبدًا لمشيئتها.

لا بدّ من يوم تتمزّق فيه غشاوات التعصّب الإقليميّ والعرقيّ والدينيّ عن أعين الناس فيبصرون من بعد عمى، ويستفيقون من بعد غفلة. ويدركون أنّ ما ينفع أمّة ينفع كلّ الأمم. وما يضير أمّة يضير كلّ الأمم. وأنّ الأرض ليست موطنًا لشعب دون شعب، وخيراتها ليست وقفًا على دولة دون دولة. وأنّ النزاع على الأرض لا غالب فيه إلّا الأرض: أمّا النزاع مع الأرض فقد يؤدّي – بل هو سيؤدّي حتمًا – إلى غلبة الإنسان على الأرض. وغلبة الإنسان على الأرض ستكون نقطة انطلاقه إلى الحرّيّة. وهي غلبة لن تتمّ لهذه الأمّة وحدها أو لهاتيك. بل تتمّ بجهود جميع الأمم وجميع الناس. وإذن فهي غلبة الإنسانيّة لا غلبة دولة بعينها أو إنسان بعينه. وإذن فالغنيمة هي للكلّ بالسواء، لا للعملاق دون القزم، ولا للمبصر دون الضرير، ولا للشاب والكهل دون الطفل والشيخ.

أجل، لا بدّ من يوم تبوح فيه الأرض بأسرارها للإنسان، فيبصر أين كان وماذا كان وكيف تدرّج على مدى الأزمان، ويدرك أنّه ما تقمّط بالزمان ليبقى إلى الأبد رهين الزمان. بل ليقهر في

النهاية الزمان. ولا استوطن الأرض ليستأسر للأرض بل ليجعل منها نقطة الوثوب إلى السماء.

في ذلك اليوم يقرأ الناس تاريخ هذه المدنيّة التي نزهو بها ونضحّي بالطارف والتليد في سبيل الحفاظ عليها فيضحكون منّا، ويتفكّهون بأخبارنا مثلما نتفكّه نحن بأخبار أبناء الكهف والغاب الذين سبقونا؛ ومثلما يتفكّه كاتب عبقريّ في عنفوان فيضه وإنتاجه بمقال كتبه وهو في أوّل عهده بالقلم والحبر والقرطاس وألوان الكلم؛ أو مثلما يتفكّه رسّام عظيم بصورة دجاجة أو قطّة رسمها بالفحم على جدار منزله وهو ما يزال في الخامسة من عمره. وكما يبدو لنا البعير لدى المقارنة بالسيّارة، والجواد بالطيارة، والنشّابة بالصاروخ، والزند بالكهرباء، والصوت نرسله من حناجرنا في الفضاء فلا يتعدّى الميل أو الميلين، بالصوت نودعه المذياع فيلفّ الأرض في طرفة عين، كذلك ستبدو فتوحاتنا العلميّة ونظمنا السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة ألاعيب صبيانيّة لدى المقارنة بالفتوحات والنظم التي ستعرفها الأجيال من بعدنا.

في ذلك اليوم تتناجى البقاع التي كانت قفرًا يبابًا في الأرض فتقول صحراء ليبيا لصحراء غوبي:

«ما أعذب الريّ بعد العطش!».

ويقول الربع الخالي لبادية الشام: «ما أطيب الأنس بعد الوحشة!»

وتقول صحراء أريزونا للدهناء: «ما أجمل الخصب بعد العقم!»

وتهتف جميعها بصوت واحد: «ما أعظم الإنسان!»

ويخاطب القطب الشماليّ يومذاك أخاه القطب الجنوبيّ فيقول:

«الفصل صيف. وعهدي بك تنام الصيف كلّه. فما هذه الجلبة تأتيني من عندك؟ ألا ردّها عنّي».

فيجيبه القطب الجنوبيّ: «بل ردّ شمسك عني لأردّ جلبتي عنك. أو ردّ عني هذه الجماهير من الناس يهبطون عليّ من الجوّ ويحوّلون ليلي نهارًا وشتائي صيفًا ثمّ يحرقون فروتي الأزليّة البيضاء بأشعة شموسهم الكثيرة، ويسرحون ويمرحون في أرجائي وكأنّهم في مهرجان».

ويهتف القطبان معًا: «ما أعظم الإنسان!».

وتتسامر يومذاك البحار فيقول البحر الأسود للبحر الأحمر:

«حلمت في الليلة البارحة أنّ أساطيل جرّارة كانت تمخر مياهي، وقد اشتبكت في صراع مدوٍ عنيف وصبغت وجهي بالدم. فأفقت من حلمي وأحشائي في اضطراب».

فيجيبه البحر الأحمر: «هوّن عليك. فما حلمك غير ذكريات ماضٍ سحيق لن يعود. أمّا أنا – ولك أن تصدّق أو أن لا تصدّق – فقد رأيت في اليقظة فرعون ورجاله وموسى ورجاله يتوافدون

إليّ ويتبادلون الأنخاب والقبل، ويمشون على سطحي وكأنّهم يمشون على اليابسة. فقل معي: ما أعظم الإنسان!»

في ذلك اليوم يعلَن افتتاح أعظم متحف عالميّ للعاديات في قلب القارّة التي كانت تدعى أميركا الشماليّة. وتذاع بالأثير رسوم كلّ ما فيه من المعروضات الغريبة، ويسمع الناس في كلّ صقع من أصقاع الأرض صوت المذيع يحدّثهم عن أهمّيّة المتحف ويشرح لهم بعض الآثار المعروضة فيه فيقول في بعض ما يقول:

«من الخير أن نعرف ماذا كنّا، لنعرف ماذا سنكون. ونحن الذين دانت لنا الأرض بأبعادها وأغوارها وأسرارها يليق بنا أن نحذَرَ الغرور الذي وقع فيه الكثير من أسلافنا إذ ظنّوا أنّهم أدركوا الذروة وأنّهم بلغوا ما بلغوه من المعرفة بجدّهم وجهدهم غير حاسبين لمن سبقهم حسابًا، وغير عارفين أنّ لكلّ إنسان من آدم حتّى آخر مولود لفظته الحياة شركة في كلّ ما خلقته وتخلقه الإنسانيّة من خير ومن شرّ. فما من يد أنتجت شيئًا إلّا شاركتها فيه أيدي الناس أجمعين. وما من عقل تمخّض عن أمر من الأمور إلّا كان نتيجة لما تمخّضت عنه سائر العقول! إنّ لكم في هذا المتحف الذي أنفقنا السنين الطوال في جمع آثاره وترتيبها لأبلغ شاهد على ما أقول.

«إلّا أنّ أسلافنا – لا سيّما أجدادنا في القرن العشرين – ما كانوا يفقهون ذلك. ولأنّهم ما فقهوه كان كلّ منهم يحاول الاستئثار بأكبر قسط من نتاج أيدي الناس وعقولهم، لا همّ له أبَلَغَ مأربه بالمحبّة أم بالبغض، وبالصدق أم بالكذب، وبالطهارة أم بالدعارة، وبالحقّ أم بالقوّة. ولا همّ له أجاع جاره أم شبع، أعاش عزيزًا أم مات منسيًّا على قارعة الطريق. ولذلك كانوا يتنابذون أبدًا ويتناهشون ويتحاربون ثمّ يعجبون كيف أنّهم يطلبون السلم وعلى السلم لا يحصلون. لقد بلغ بهم الجهل حدّ الإيمان الأعمى بأنّ في استطاعة الجشَع أن يعيش في سلام أبديّ مع الحرمان، والجوع مع الشبع، والإخلاص مع الرياء، والمحبّة مع البغضاء، والطهارة مع القذارة. وكان دستورهم في الحياة: العيش كفاح. والغُنم للغالب، والغُرم للمغلوب، ومن أراد السلم فليستعدّ للحرب. أمّا الحرب فكانوا يدعونها خدعة. وإذن فحياتهم كانت خداعًا في خداع، فلا عجب إن كانت النتيجة حروب الفناء التي يحدّثكم عنها التاريخ، ثمّ هذه العاديات التي استطعنا نبشها من بين أنقاض مدنهم ومدنيّتهم.

«لئن كنّا ننعم اليوم بطعم السلم الطيّب، والتعاون الجميل، والعمل المثمر، فنمتطي الهواء حين نشاء وحيث نشاء من غير أجنحة ومحركات، ونلجم العواصف، ونسوق السحب، ونكشح العتمة عن الأرض بغير أسلاك ومصابيح، ونسمع جوقة الأفلاك وأعذب الألحان بغير آلات وأوتار، ونتبادل الأفكار والعواطف بغير حبر وورق وبغير مطابع – لئن كنّا ننعم بهذه البركات وسواها

فما ذاك إلّا لأنّنا عرفنا عظمة الإنسان وتفاهة كلّ ما في الأرض بالنسبة إليه فنبذنا الكثير من سخافات السلف التي تبدو لنا اليوم مهازل ومساخر.

أوَتدرون هذه الخِرق الملوّنة البالية المعروضة عند مدخل المتحف ما هي؟ هي أعلام بعض الأمم التي سبقتنا. ففي سالف الأزمان كان الناس يعيشون أممًا. وكان لكلّ أمّة علَم تعتزّ به وتهرق دماء بنيها في الذود عن شرفه. ولَكَم نشبت حروب في سبيل عَلَم. فكان العلم أغلى من الدم، وأقدس من الحياة، وأشرف من الإنسان.

«وهذا الكرّاس في يدي – أتدرون ما هو؟ هو نموذج من نماذج كثيرة لشهادة ما كان يستطيع أحد من الناس أن ينتقل من بلد إلى بلد بدونها. وكانوا يدعونها جواز سفر. وكان لا بدّ لهذا الجواز من أن يصدر عن سلطة معترف بها، ومن أن ينطوي على وصف دقيق لحامله – متى ولد، وأين، وما هو طوله وعرضه ولون شعره وعينيه، وهل هو عازب أو متزوّج، وما هو غرضه من سفره وغير ذلك من الشؤون. لا تضحكوا، فهذا الجواز لحامله كان بمثابة الروح أو أغلى. والويل لمن كانوا يصطادونه مسافرًا بغير جواز أو بجواز مزوّر. فقد كان نصيب ملاك بين زمرة من الشياطين خيرًا من نصيبه. والأسخف من ذلك أنّ الدخول إلى بعض البلدان – بجواز أو بغير جواز – كان أصعب من دخول إبليس إلى الجنّة. ذلك لأنّ شرع الناس كان يبيح لكلّ أمّة من الأمم أن تستقلّ ببقعة من الأرض فتستغلّها أو لا تستغلّها على هواها، وتبذّر خيراتها أو تبقيها دفينة في التراب، وتقبل من تريد قبوله وترفض من تريد رفضه. وتلك البقعة كانت تدعى وطنًا. وكان من أقدس واجبات ساكنيها أن يموتوا في الدفاع عنها. وذلك الضرب من الموت كان يدعى بسالة واستشهادًا في سبيل الاستقلال والحرّيّة!..

«وإليكم هذه الوريقة، أوَتعلمون ما هي؟ هي كذلك نموذج من نماذج كثيرة كانت تُعرف باسم أوراق النقد. فقد كان الناس يبيعون نتاج قلوبهم وأفكارهم وعضلاتهم ويقبضون أثمانها كميّات متفاوتة من مثل تلك الأوراق. فكان أوسعهم حيلة وأعظمهم ذكاء ودهاء أكثرهم نقدًا. وهؤلاء كانوا يُدعَون أغنياء. وكان أقلّ الناس دهاء وذكاء وحيلة أقلّهم نقدًا. وأولئك كانوا يُدعَون فقراء. ولأنّ أهل الحيلة والذكاء والدهاء كانوا دائمًا قلّة فقد كان الجانب الأكبر من الناس في بؤس مقيم وضنك شديد، وكانت القلّة تتحكّم أبدًا في حياة الكثرة.

«لعلّكم لا تصدّقون إذا قلت لكم إنّ هذه الأوراق كانت عند أسلافنا بمعزّة الروح، بل أعزّ من الروح. فبها كانوا يبتاعون كلّ مقوّمات الحياة. وبدونها لم تكن لهم حياة. حتّى القوت الضروريّ، وحتّى المعرفة، وحتّى الرحمة والعافية كانت بضاعة يعزّ الحصول عليها إلّا بمثل هذه الأوراق. ولذلك كان الجهل والمرض والقذارة نصيب الفقراء في الأرض وهم الأغلبيّة الساحقة في الأرض، والذين ما جادت الأرض بخيراتها إلّا بقوّة سواعدهم وعرق جباههم. وبشريّة تحبس أقلّيّتُها الرزقَ

والمعرفة والعافية عن أكثريّتها وتمتهن الإنسان إلى حدّ أن يبيع كرامته بكسرة خبز وقميص وحذاء، كيف ترجو لها التقدّم والسلام والاستقرار؟ وأيّ عجب في أنّها راحت تنهش بعضها بعضًا حتّى لكادت تفنى من الأرض وكادت تفسد الأرض؟

«وماذا عساني أقول لكم عن هذه القبّعات الثقيلة الوزن الغريبة الشكل التي كان أسلافنا يدعونها تيجانًا، وعن هذه العصيّ التي كانت صوالجة، وهذه المسكوكات التي كانت أوسمة؟ لقد كانت في نظر أسلافنا عنوان العزّ والسؤدد والسلطان والشرف والعظمة والمجد الأثيل. ألا رحم الله أجدادنا. فما كفاهم مجدًا أنّهم نبتة ربّانية جذورها في الأزل وفروعها في الأبد حتّى راحوا يزيّنونها بتعاويذ يعلّقونها على أغصانها ومساحيق يذرونها على أوراقها.

«ولكنّنا قبيح بنا أن نسخر بأجدادنا. فمن ضلالهم صوابنا، ومن ضعفهم قوّتنا، ومن جورهم عدلنا، ومن قساوتهم لطفنا، ومن سخافتهم جِدّنا، ومن عتمتهم نورنا، ومن عبوديّتهم حرّيتنا، ومن حروبهم سلمنا. لقد مشوا بنا شوطًا بعيدًا إلى الذروة. وما تزال أمامنا أشواط. ولقد دانت لنا الأرض. ولكنّنا ما نزال عبيد السماء. فجميل بنا أن نفتح للآتين من بعدنا أبواب السماء مثلما فتح لنا الماضون من قبلنا أبواب الأرض. وأبواب السماء ستنفتح للإنسان الموحّد الفكر والقلب والإرادة. وستهتف السماء والأرض معًا:

«ما أعظم الإنسان!»

سَماءٌ جديدة

السماء هي ذلك العالَم المحجوب عن الأبصار والمدارك الذي ما برح الإنسان يتخيّله ويشتاق الوصول إليه منذ أن تفتّح فيه الخيال ومنذ أن لفح قلبَه الشوقُ إلى المعرفة وإلى حياة لا تتعثّر في الشقاء ولا تبتلعها لجّة الفناء.

والسماء تتّسع وتضيق، وتدنو وتقصو، وتلين وتصلب على قدر ما يتّسع خيال الناظر إليها أو يضيق، وعلى قدر ما تسمو به أشواقه أو تنحطّ، ويضعف إيمانه بنفسه أو يشتدّ. سواء في ذلك خاصّة الناس وعامّتهم. ربّ عالم بشؤون الأرض كان في منتهَى السذاجة من حيث تفكيره بالسماء. فكانت سماؤه بابًا يُدَقّ لاستجداء المال أو البنين، أو محكمة يُرشى قضاتها بالتملّق والهدايا، أو خزّان أوجاعٍ وويلات تُردّ بحرق الشمع والبخور وبالانقطاع عن الطعام وترديد كلمات بعينها في أوقات بعينها وفي أماكن بعينها. وربّ أمّيّ كانت سماؤه منبع الرحمة والجود والعدل والمحبّة والحرّيّة والحياة وكانت المحور الذي تدور عليه نيّاته وأفكاره وشهوات قلبه.

وأكثر الناس لو سألتهم عن السماء أين هي لدلّوك بأصابعهم على القبّة الزرقاء. ولو سألتهم عن تلك السماء مَن فيها وما فيها، لأجابوك أنّ فيها إلهًا أو آلهةً وأجنادًا مجنّدة من الملائكة وكواكب لا تُعدّ. ثمّ لو سألتهم عن ذلك الإله أو عن أولئك الآلهة والملائكة ماذا يعملون لَقالوا لك إنّ شغلهم الشاغل هو الاهتمام بالأرض وما عليها ومَن عليها. فما تهبّ نسمةٌ، ولا تعدو غمامةٌ، ولا تخضرّ نبتة، ولا يرتفع جبل أو ينخفض وادٍ إلّا بتدبير السماء. ولا يولد حيّ أو يموت حيّ إلّا بمشيئتها.

أمّا الإنسان فهو همّ السماء الأكبر. وقد خلقته للسعادة فاختار الشقاء، وللحياة فاختار الموت. فعزّ عليها أن يخرج الإنسان على إرادتها وأن يشقى ويموت. لذلك أرسلت إليه من يدلّه على طريق الخلاص من الشقاء والموت. ثمّ راحت ترقب جميع حركاته وتسجّلها في سجلّها العظيم. فتحصي عليه أنفاسه وأفكاره وميوله وأعماله ونبضات قلبه. فمَن أطاعها من الناس وعمل مشيئتها في خلال العمر الذي قسمته له، رفعته إليها وأسكنته جنّة فسيحة فيحاء كلّ ما فيها جمال وأنس وراحة

وحرّية ومتعة خالدة على الزمان. ومن عصاها ولم يعمل بإرشادها زجّته في أتّون من النار حيث العذاب المقيم حتّى آخر الدهر.

لقد هيمنت سماء الناس على أرضهم إلى حدّ أنّهم لا يستطيعون إتيان عمل من الأعمال أو الإقدام على أمر من الأمور إلّا كان للسماء القسط الأوفر في سيره ونتيجته. فلا الزارع يزرع، ولا الحائك يحوك، ولا المحارب يحارب إلّا بوَحي السماء وتدبيرها. إذا أجدبت الأرض فالجدب من غضب السماء. أو أخصبت فالخصب من فضل السماء. كذلك المرض والعافية، والربح والخسارة، والنصر والهزيمة، والجاه والغضاضة، والفقر والغنى. وكذلك الهناء والشقاء، والمعرفة والجهل، والولادة والموت. فلا عجب إذا راح الناس يسترضون السماء ويسترحمونها مقدّمين لها القرابين من بواكير حقولهم وكرومهم، والذبائح من لحوم أنعامهم – وحتّى من لحومهم – ومقيمين لها المعابد والأعياد والصلوات في كلّ يوم من أيّام السنة. كيف لا ولها اليد الأولى واليد الطولى في كلّ ما يفكّرون به ويشتهونه وينوونه ويعملونه. ولها السلطان المطلق على أرزاقهم وأعناقهم. في حين أنّهم لا يملكون أقلّ وسائل السلطان على السماء. وتلك لَعمري هي العبوديّة بعينها.

ما خلق الإنسان نفسه – آمنت وصدقت. وحياة الإنسان من مصدر فوق الإنسان – آمنت وصدقت.

والإنسان مطالَب بأن يفهم حياته ليفهم المصدر الذي جاءته منه، وليفهم الغاية من حياته – آمنت كذلك وصدقت.

أمّا أن يكون خالق الإنسان أضيق صدرًا، وأشحّ يدًا، وأقسى قلبًا من الإنسان، وأمّا أن تكون حياة الإنسان أُلهوّةً للسماء وأُلعوبة في يد الزمان فتورق ألمًا وتزهر أملًا ولا تعقد غير الموت فأمر ما أستطيع أن أؤمن به وأن أصدّقه.

إنّي لأعذر كرّامًا غرس كرمةً وبعد عشر سنوات من التعب والعناية حكم عليها بالفأس والنار لأنّها ما أعطته أكُلًا. وأظنّكم تعذرونه. ولكنّني لا أعذر – ولا أظنّكم تعذرون – والدًا يخنق ولده في المهد لأنّه قال له: «لا ترضع» فرضع، أو لأنّه قال له: «قم واركض مثلي» فما قام وركض.

وإنّي لأعذر – وأظنّكم تعذرون – معلّمًا يُنزل القصاص بتلميذ لأنّه من بعد أن درس الجبر والهندسة ما استطاع أن يقسم ثلاثة قروش بالمساواة بين ثلاثة من رفاقه. ولا أعذر – ولا أظنّكم تعذرون – معلّمًا يفرض أصرم العقاب على تلميذ لأنّه أخفق في تحليل الفوارق بين هندسة إقليدس ونظرية أينشتين وهو ما تعلّم بعد كيف يجمع اثنين إلى اثنين.

وإنّي لأعذر – وأنتم تعذرون – ربّ عائلة ليس في معجنه غير رغيف واحد إذا هو ضنّ بذلك الرغيف على شحّاذ. ولست أعذر – ولا أنتم تعذرون – موسرًا ينوء بيته بالخيرات فلا يجود على ابنه الجائع بأكثر من كسرةٍ من الخبز أو كسرتين.

أليس الإنسان لا يزال طفلًا رضيعًا بالنسبة إلى الله؟ فما قولكم بإله منه كلّ شيء، وعارف بكلّ ما كان وما هو كائن وما سيكون، وقادر على كلّ شيء، يخلق إلهًا طفلًا كالإنسان ثمّ يقضي عليه بالموت لأنّه قال له: «لا تأكل» فأكل؟ أليس ذلك منتهَى القساوة في شرعكم؟ وشرعكم شرع اللحم والدم. فكيف بشرع الإله المنزّه عن اللحم والدم والذي كلّه حنان ورأفة ومحبّة؟ تعالى الله عمّا يزعمون.

أليس الإنسان لا يزال بالنسبة إلى الله تلميذًا ما تعلّم بعد كتابة الأرقام وجمع رقم إلى رقم؟ فما قولكم بإله يأخذ حفنة من الطين فينفخ فيها من روحه وإذا بها إنسان سويّ. ثمّ يحنق على ذلك الإنسان لأنّه ما تعلّم في درس واحد كلّ أسرار الأرقام من اللانهاية إلى اللانهاية ولذلك يسومه من العذاب ألوانًا؟ أليس ذلك أقصى ما يبلغه الظلم في شرعكم؟ وشرعكم شرع الغبيّ والأعمى. فكيف بشرع الإله الذي كلّه معرفة وكلّه نور؟ تعالى الله عمّا نسبوا إليه وينسبون.

ثمّ أليس الإنسان أفقر من نملة في زجاجة بالنسبة إلى الله؟ وهو، مع ذلك، يعرف معنى الجود وقيمة العطاء. فما قولكم بإله في قبضتيه الآزال والآباد يبخل على أعزّ مخلوقاته بفسحة من الزمان تكفيه لمعرفة نفسه ومعرفة ربّه، فلا يجود عليه بأكثر من أربعين أو خمسين سنة نصفها طفولة ونوم وذهول، ونصفها دأب في سبيل الرزق والنسل والتفلّت من شباك الحاجة والجهل والمرض؟ وأنتم تعلمون أنّ واحدكم لو شاء إتقان أيّ علمٍ أو أيّة مهنة أو حرفة من علوم الناس ومهنهم وحرفهم، وطال عمره حتّى المائة وما فوق، لما بلغ الكمال في الإتقان. فكيف بعلم المسكونة منظورها ومستورها؟ كيف بعلم الحياة؟ وكيف بعلم الله وجوهره ومقاصده يتقنها الإنسان في خلال أربعين أو خمسين من الأعوام؟! إنّه المستحيل بعينه. وإنّه الشحّ بعينه أن يطالب الله الإنسانَ بمعرفة نفسه ومعرفته فلا يفسح له من الأبديّة أكثر من طرفة عين. ذلك في شرعكم منتهَى البخل ومنتهَى الجور. وشرعكم شرع الطامعين والمستأثرين، والظالمين والمظلومين. فكيف بشرع الإله الذي كلّه جود وكلّه صدق وعدل؟ تعالى الله عمّا ظنّوا وعمّا يظنّون.

ما خلق الله الإنسان بيمينه ليعود فيمحوه بيساره. ولا هو سلّحه بالفكر والخيال والإرادة لينتزع منه سلاحه قبل أن يكون له الوقت الكافي لإتقان استعماله. وها هوذا الإنسان ماضٍ في سبيله يتفتّح فكره يومًا بعد يوم، ويمتدّ خياله ميلًا بعد ميل، وتشتدّ إرادته جيلًا تلو جيل. وها هوذا يذلّل الأرض فترًا فترًا، ويفضّ أسرارها سرًّا سرًّا. ولن يهدأ له بال حتّى تُسلس له الأرض قيادها. وإذ ذاك يدير وجهه شطر السماء، فلا يرتدّ عنها حتّى تصبح منه ويصبح منها، وحتّى تفتح له قلبها فينزلها سويداء قلبه. فلا هي بعد ذلك فزّاعة تقضّ عليه مضجعه، وتشلّ فكره وخياله وإرادته. ولا هي تلك الطاغية تكبّل يديه ورجليه، وتضيّق عليه أنفاسه، وتنشر العتمة في ناظريه إلّا إذا استعطفها بقربان من دم قلبه وعرق جبينه، وإلّا إذا استرضاها بسجدةٍ أو بسُبّحة.

سيعرف الإنسان أنّ القدرة التي يدعوها الله هي الكلّ في الكلّ، وأنّه منها وفيها. فهو في كلّ زمان ومكان لأنّ الله في كلّ زمان ومكان. وهو في الأرض مثلما هو في السماء، وفي الأزل مثلما هو في الأبد. فالسماء والأرض تتزاوجان في الإنسان، والأزل والأبد يلتقيان في نبضة من نبضات قلبه...

وسيعرف الإنسان أنّ صراعه مع الأرض ليس صراعًا في سبيل الحصول على سمن الأرض وشهدها، بل في سبيل الانعتاق من ربقة الأرض. وكذلك صراعه مع السماء لن يكون في سبيل النجاة من جهنّم والتمتّع بالجنّة بل في سبيل المعرفة الربّانيّة التي لا تعرف الخوف من أيّ نوع كان، والتي تتسامى فوق كلّ متعة مهما طابت مذاقًا.

ثمّ سيعرف الإنسان أنّ الدين الذي يحاول ربط الأرض بالسماء إنّما هو صراط يسير عليه القلب، لا عقيدة يذيعها اللسان أو حركات تقوم بها الأرجل والأيدي. وإنّ من شاء أن يعلّم الناس الدين عليه أن يعلّمهم بسيرته وسريرته قبل لسانه وشفتيه، وأن يمشي أمامهم على الصراط ليوقنوا أنّ في مستطاعهم المشي عليه. فكلّ دين يشلّ بالخوف والتهديد والوعيد فكر الإنسان وخياله وإرادته في انطلاقه نحو المعرفة والحريّة؛ وكلّ دين لا يوحّد قوى الإنسان في صراعه مع الحدود والقيود، ليس بالصراط الذي يليق بالإنسان أن يسير عليه.

ولكنّ الإنسان أعظم من أديانه وأبقى. فهو سيجعل من أرضه سماءً، وسيكون في سمائه سيّدَ الزمان والمكان وشريك الحياة الخلّاقة في الخلق. أمّا متى يتمّ له ذلك فسؤال ليس يطرحه إلّا الذين خارت عزائمهم وانهدّ إيمانهم. أولئك هم الذين ما عرفوا بعد أرضًا غير هذه البطحاء، ولا سماء غير هذه القبّة الزرقاء.

أمّا الذين لهم في كلّ كوكب أرض وفي كلّ فضاء سماء فأولئك لا يسألون عن ذلك اليوم متى يكون. بل يثبتُون في الميدان واثقين من النصر – ولو في نهاية الزمان.

في خَريف العُمر

لكلّ فصل من فصول السنة معناه ورونقه وبهجته. حتّى لتبدو المفاضلة فيما بينها ضربًا من السفسطة الفارغة ومن الجدل الذي لا طائل تحته. إذ لا ينوب فصل واحد عن باقي الفصول ولا يكتمل إلّا باكتمالها. فالربيع هو انتفاضة الطبيعة المنغلقة على ما بها، وقد ملّها الانغلاق فثار ثائرها على الأقفال والقيود، وراحت تحطّمها يمينًا وشمالًا دون تردّد أو شفقة. فبراعم تتفتّق عن أزهار وأوراق وأغصان، وبذور تنفض عنها الأكفان فتدرج من ظلمة الأرض إلى نور الشمس أعشابًا شذيّة نديّة، وجذور تتفكّك من أصفادها فتشقّ التراب شقًّا وتمضي تصعد في الجوّ وتمتدّ في كلّ جانب، وحشرات وهوامّ وأطيار وبهائم تطنّ وترقص وتزغرد وتسرح وتمرح وتتزاوج وهي في نشوة من سحر التجدّد والانطلاق. أرض تفور بالحركة والبرَكة وشتى الأشكال والألوان، وسماء تمور بالحرارة والنور وبالأهازيج والألحان. إنّها لنشوة الثورة الظافرة.

إن يكن الربيع ثورة الطبيعة على الانغلاق، فالصيف هو تلك الثورة وقد بلغت مداها ومبتغاها فانكسرت حدّتها، ولانت شكيمتها، وصحت من سكرتها فانطلقت تنظّم شؤونها وتحصي مغانمها، وتسهر على سلامتها وتنميتها كيما يتاح لها فيما بعد أن تستمتع بأطايبها إلى أقصى حدود الاستمتاع.

ويأتي الخريف فإذا الثورة الطبيعيّة تعطي نتاجها. ونتاجها ثمار ناضجة بهيّة شهيّة. فيها الجمال وفيها اللذّة وفيها العافية. وتمضي الأرض تنعم بثمار ثورتها فتجني وتأكل وتشبع، وتختزن ما فاض عن حاجاتها. وإذ تشبع يرين على أجفانها النعاس فتحلو لها القيلولة لتهضم ما أكلته وتستريح من وعثاء الحَمْل والمخاض والولادة.

والشتاء هو قيلولة الطبيعة الثائرة تفرضها الحياة عليها فرضا ضنًّا بقواها من التفريط وبأمعائها من التخمة، وخوفًا عليها من الفوضى. فمن حكمة الحياة أن تمشي بأبنائها الهوينا في سبيل

الانطلاق الكامل، لا أن تدفعهم إليه في جمزة واحدة. ذلك لأنّ الحرّيّة إكسير لا يستطاع التداوي به إلّا جرعة جرعة. وجرعة واحدة منه تكفي لعمر واحد أو لدورة واحدة.

لعلّنا إذ نتكلّم مجازًا عن فصول العمر نصيب لبّ الحقيقة عن طريق المجاز. فقد يكون العالم بجميع ما فيه خاضعًا لنظام محكم كنظام الفصول على الأرض. فلا بدّ لكلّ ما يبتدئ في الزمان وينتهي في الزمان من أن يمرّ بثورة من الانطلاق تعقبها فترة من استجماع القوى وتنظيمها، ثمّ فترة من الحصاد والجنى، ثمّ انغلاق جديد أو قيلولة قد تدوم شهرًا وقد تطول دهرًا. وإذ ذاك فلنا الحقّ كلّ الحقّ أن نتحدّث عن ربيع الشمس أو أيّ كوكب في الفضاء، وعن صيف الإنسانيّة، وخريف المدنيّة، وشتاء هذا المذهب أو ذاك مثلما نتحدّث عن ربيع الأرض وصيفها وشتائها. والأمر الذي لا شكّ فيه عندي هو أنّ الحياة المتجسّدة في الإنسان لا تنفكّ تنشرها الفصول وتطويها إلى أن تبلغ بها الحرّيّةَ القصوى حيث تنعتق انعتاقًا أبديًّا من ربقة الفصول وسلطة الدهور.

إلّا أنّنا مهما تمادينا في المقارنة ما بين فصول السنة وفصول العمر، ومهما استهوتنا وجوه الشبه بين تلك وهذه لا يصحّ لنا أن نتجاهل الفوارق الجسيمة ما بين الطبيعة العجماء والطبيعة العاقلة. فنحن بالنظام الذي تخضع له أجسادنا قد لا نختلف بكثير أو قليل عن النبتة والحشرة والبهيمة، إذ نمرّ مثلما تمرّ بأطوار أربعة: تَفتّح فاكتمال فجنى فانحلال. ولكنّنا نملك من عناصر التفتّح والنموّ فوق ما تملكه النبتة والحشرة والبهيمة. نملك الفكر والخيال والإرادة. وهذه إن تقيّدت بنظام فهو غير نظام الفصول الأربعة. وهو نظام ما نزال قاصرين عن فهم غاياته ومداه. فكيف بنا نقيم له الحدود؟

قد يهرم أحدنا فتنشلّ أعصابه ويغيم بصره ويثقل سمعه وتتقاعد أكثر أعضائه عن القيام بوظائفها ويبقى، رغم ذلك، جامح الخيال صلب الإرادة، فتيّ الفكر والقلب. وقد يكون الآخر من عمره في ميعة الشباب ويكون فكره في المهد، وخياله في الأكمام، وإرادته في الشيخوخة. وليس في الناس اثنان تتساوى فصول عمريهما في كلّ معانيها وإن تساوت في مداها وفي مظاهرها الخارجيّة. لذلك يصعب التحدّث عن فصول العمر إلّا تحدّثًا إجماليًّا، إذا هو لم ينطبق على جميع الناس من كلّ الوجوه انطبق على أكثر الناس من أكثر الوجوه.

في خريف العمر تكثر الظلال وتمتدّ. فما من حركة أتيناها أو شهوة اشتهيناها أو نيّة نويناها إلّا كان لها في حياتنا أثر أو ظلّ يلازمنا في الحلّ والترحال، وفي اليقظة والمنام. وهذه الظلال لا تنفكّ تهتزّ اهتزاز الأوتار في القيثار. فآنًا يغلب هذا الوتر وآونة ذلك حسبما تتّجه أصابع الناقر عليها. والذي ينقر على الأوتار قد يكون عاطفة طارئة، أو فكرة عابرة، أو حدثًا من الأحداث التي لا سلطان لنا عليها. ويأتينا رنين الأوتار أمواجًا تلوَ أمواج. فموجة فرح، وموجة حزن، وموجة تمجيد وتعظيم، وموجة تقريع وتبكيت، وموجة انتصار وانتشار، وموجة انكسار وانكماش إلى آخر

ما في سُلّم المشاعر البشريّة من درجات. والسعيد السعيد من الناس من بلغ خريف عمره فكانت الأوتار التي شدّها منذ أوّل ربيعه حتّى خريفه أوتارًا نقيّة المعدن، شجيّة الرنّة، صافية القرار. ذلك يجني من خريفه أطيب الثمار.

وفي خريف العمر يكثر التلفّت إلى الوراء ويقلّ التطلّع إلى الأمام. فنحن كلّما اقتربنا من النهاية المحتّمة عدنا إلى الماضي نفتّش فيه عن زاد صالح لتلك النهاية. والويل لمن كان ماضيهم فخاخًا وأشواكًا وظلالًا كثيفة قاتمة ثقيلة. أولئك هم الذين شدّوا بأرجلهم وأيديهم أثقالًا ثمّ قالوا: «هلمّوا نصعد الجبل»، وإذ أرهقتهم أثقالهم فارتدّوا على أعقابهم خائبين راحوا يلعنون الجبل قائلين إنّه لجبل يعصى على الملائكة والشياطين. وأولئك هم الذين يضنيهم خريف العمر فيتمنّون لو كانت الحياة ربيعًا دائمًا جاهلين أنّهم يتمنّون المستحيل. ثمّ يزعجهم التطلّع إلى الأمام إذ لا يبصرون أمامهم غير حفرة ضيّقة مظلمة باردة. أمّا الذين ظلالهم شفّافة وخفيفة فأولئك يطيب لهم في خريف العمر أن يتلفّتوا إلى الوراء. ولا هم يطبقون أجفانهم عمّا أمامهم. فالشتاء لا يؤذي إلّا الذين بدون مأوى، والذين ما اختزنوا له مؤونة من مأكل ومشرب وكساء ووقود، أمّا الذين أعدّوا للشتاء عدّته فأولئك يجنون حتّى من الشتاء أجمل المشاعر والأفكار.

وفي خريف العمر تتراخى لجاجة اللحم والدم إلى حدّ بعيد، فلا نار تشبّ في الضلوع، ولا سياط تلهب القلب والدماغ، ولا أطياف تحوم حول الوسادة والسرير، ولا قصور في الغيوم، ولا عيون لا تشرق السعادة إلّا من خلف أجفانها. وإنّها لنعمة ليس من السهل تقديرها أن يصبح الإنسان في منجى من وساوس الشهوات الجامحة وأن يعرف أنّها ما كانت غير وساوس لا تملك مفتاح الهناء وقد تملك مفتاح الشقاء.

وفي خريف العمر يحلو التأمّل وتستطاب محاسبة النفس. ومن قطع من العمر ربيعه وصيفه وأدرك خريفه لا بدّ له، مهما يكن بليد الفكر والخيال، من أن يسأل نفسه عن القوى التي كانت هاجعة فيه منذ أن أبصر النور من أين جاءت. ومن أيقظها من سُباتها ثمّ نظّمها ودرّبها وأطلقها جيوشًا جرّارة تخوض ألف معركة على ألف جبهة، فتنتصر وتنكسر، وتشتدّ وتضعف، وتشبع وتجوع، ولكنّها أبدًا لا تستسلم، بل تمضي في نضالها ما بين كرّ وفرّ وهجوم ووجوم، وأيّ معنى لذلك النضال؟ وهل من هدف بعيد يرمي إليه؟ وما هو ذلك الهدف؟ ومن ثمّ فلماذا نؤتمن على تلك المواهب والقوى إلى حين، ثمّ هي تُستردّ منّا برغم أنوفنا؟ ألأنّنا ما أحسنّا فهمها؟ أم لأنّنا أسأنا استعمالها؟ ومَنذا يدري أيّنا يحسن استعمالها وأيّنا يسيئه؟ وهذه الظلال الملازمة لنا ألعلّها ذكريات لا أكثر؟ فما بالُنا نُقبل على بعضها ونهرب من الآخر؟ ما بال هذا الظلّ يؤنسنا ويطربنا وذلك يوحشنا ويتركنا وكأنّ النفس منّا في مناحة؟ أهو الوجدان وحده يكفينا بشيرًا بالخير ونذيرًا بالشرّ أم أنّ في الإنسان هاديًا أصدق من الوجدان؟ ما للخير والشرّ في صراع سرمديّ؟ أحقًّا أنّهما

يصطرعان أم أنّنا نحن في صراعنا بعضنا مع البعض ومع الطبيعة في ذهول وبحران حتّى ليتراءى لنا أنّه صراع تشاركنا فيه سائر الأكوان؟

لعلّ أطيب ما يجنيه إنسان من خريف عمره هو الشعور الهادئ المطمئنّ بأنّ قلوبًا كثيرة تنبض في قلبه نبض الصداقة والأخوّة والمحبّة، وأنّ جذوره قد امتدّت بعيدة وقويّة في تربة الحياة، والظلال التي يطرحها على الأرض ظلال ناعمة وارفة مؤنسة يتفيّأها المكدودون والمشرّدون والمستوحشون فيتذوّقون طعم الراحة ويشكرون ويباركون ثمّ في سبيلهم يمضون. إنّ مثل هذا الشعور يطلّ به الإنسان على شتاء العمر لَكَفيل بأن يحوّل برد الشتاء حرارة ووحشته أنسًا وقحطه خصبًا. وإذا هو اقترن بالإيمان البصير بحكمة الحياة وجمالها وعدلها استطاع أن يواجه الموت كما لو كان ولادة واللحد كما لو كان مهدًا.

عَفوك يا لبنان

يقول المتبحّرون في علوم الاجتماع إنّ بين طبيعة البلاد وطبيعة سكّانها تجانسًا بعيد المدى. فسكّان المناطق الباردة أشدّ مراسًا، وأصلب عودًا، وأوسع حيلة من سكّان المناطق الحارّة الذين يغلب عليهم الخمول والتراخي والاستسلام. وسكّان البلاد التي سماؤها عابسة وأرضها شحيحة يميل مزاجهم في الغالب إلى التكتّم والحرص والإنكماش. وعلى عكسهم أهل البلاد التي سماؤها صافية ضاحكة، وأرضها جوّادة رؤوم. فمزاج هؤلاء أميل ما يكون إلى الصراحة والجود والانطلاق.

وجريًا على هذه القاعدة ترى أنّ أهل الجبال يختلفون بأجسادهم وطباعهم اختلافًا بيّنًا عن أهل السهول والسواحل؛ وسكّان البوادي عن سكّان البلاد الآهلة بالزراعة والصناعة وغيرهما من مقوّمات الحضارة.

وقد عنّ لي أن أضرب على هذا المحكّ لبنان وسكّان لبنان. فهالني ما بدا لعيني وذهني من قلّة التجانس بين الفريقين. حتّى خُيّل إليّ أنّ الطبيعة اعتراها شيء من الخرف والذهول ساعة اختارتنا للبنان واختارت لنا لبنان. أو أنّها فعلت ذلك في حالة سأم وضجر، أو في طفرة من العبث والمجون. أو أنّنا في غفلة من الدهر، تسلّلنا إلى هذه الجبال وكان الدهر قد أعدّها لسوانا. وإلّا فمن أين هذا البون السحيق ما بيننا وبين لبنان؟

* * *

ألا عفوك يا لبنان!

لأنت أروع حلم حلمته الأرض، وأبدع قصيد نظمته السماء، وأعذب لحن وقّعته الأرض والسماء معًا. ولأنت من الأرض قلبها، ومن قلبها حبّته، ومن عينها إنسانها، ومن جبينها غرّته. وشهادتي فيك لا يجرحها كون ترابي من ترابك، ولا كون خيوط عمري بعضًا من نسيج عمرك. فما هو التراب ينطق بلساني، ولا هي خيوط العمر تشدّ أوتار قلبي عندما أؤدّي شهادتي فيك. ولكنّه شوق لافح إلى الجمال والطمأنينة والسلام ما برّدته في روحي بقعة من بقاع الأرض إلى حدّ ما

فعلته أنت. ولقد عرفت من الأرض بقاعًا تضيق بها الذاكرة. فما أجملك يا لبنان، وما أحراك بسكّان كلّهم جَمال، وكلّهم طمأنينة، وكلّهم سلام!

* * *

عفوكِ يا شماريخ لبنان!

ينشر البحر عليك قلبه الأبيض في الشتاء ليستردّه في الربيع بلّورًا مذابًا وأناشيد عذابًا. فلا تتجمّدين مع البحر إذ يتجمّد، ولا تميعين مع البحر إذ يميع. أمّا نحن ففي قلوبنا جليد لا يذوب ومستنقعات لا تجلّد. فلا أنفاس الحياة تذيب مخاوفنا من الموت والفاقة والظلم والعدوان، ولا أنفاس الموت تجمّد عفن الطمع والحسد والنميمة والضغينة في قلوبنا. تعقد السحب قبابها على تيجانك، وتشدّ النجوم أراجيحها برفاريفك، وتغفو الشموس في أحضانك، وتقيل النسائم والزعازع في تجاويفك، وتتّكئ الآفاق على سواعدك، فلا أنتِ مع السحب في حرب، ولا مع النجوم في سجال، ولا من الشمس في حرقة الولهان، ولا من الزعازع في رجفة المقرور والمذعور، ولا من الآفاق في انسحاق المنهوك والموقور. بل أنتِ أنتِ في سائر الأحوال والفصول. أمّا نحن الذين تتسلّقك أبصارنا وتستظلّك أجسادنا فلنا في كلّ يوم ألف عثرة، وألف حرب، وألف نكبة، وألف شكوى. فما أحراك بقلوب تصمد لعاديات الزمان صمودك للعواصف والصواعق، وأجسادٍ صلابتها صلابة جلاميدك، وأبصار لا تقرّحها الرياح والشموس. ما أحراك بقوم فيهم من العزّة والشمم ما فيك: لا تمتقع وجوههم، ولا تتلعثم ألسنتهم، ولا ترتجف أحشاؤهم، ولا تتنكّس رؤوسهم، ولا تمتدّ أيديهم للاستجداء في حضرة عظيم مهما عظم، أو حاكم مهما يكن سلطانه، أو زعيم مهما تكن زعامته.

* * *

عفوكِ يا أخاديد لبنان!

يا مقالع المفاتن والأسرار، وأوكار الأغساق والأسحار. يا مخادع النسمات الناعسات ومسارح الرياح العاصفات. يا مقابر الضوضاء ويا منابر السكينة. لكأنّك في المرّيخ ونحن في زُحَل. وإلّا لَمَا فاتنا أن ننحدر إلى أعماقك لنرتفع إلى أعالينا، وأن ندفن ضجيجنا في أحشائك لنسمع ما تبثّه سكينتنا، وأن نسكر بمفاتنك لنصحو وفي أيدينا مفاتيح أسرارك، وأن نكفّن العين بظلماتك لتكتحل بأنوارك. أنت معابر يعبرها البحر إلى القمم وتعبرها القمم إلى البحر. فما أجملك معابر من أغوار الإنسان إلى أعاليه، ومن أعاليه إلى أغواره. ولكن لقوم يفتّشون لهم عن معابر، وإذ يجدونها يعرفون كيف يعبرون. أمّا نحن فلا نفتّش إلّا عن رقاب نطأها بنعالنا وعن نعال تطأ رقابنا. فذلك في اعتقادنا منتهَى الرفعة والمجد والجلال.

* * *

عفوكِ يا ينابيع لبنان!

في كلّ يوم تتدفّقين سخيّة، صافية، باردة. وفي كلّ يوم نغرف من سخائك وصفائك وبردك، فلا سخاؤك علّمنا السخاء، ولا صفاؤك روّق ما بنا من عكر، ولا بردك برّد ما بنا من لواعج الشوق إلى كلّ ما فيه تهلكة لأجسادنا وأرواحنا. ونحن إن سخونا على جارنا بشيء فبما يُذلّه ويعزّنا، ويحطّه ويرفعنا، ويُفقره ويغنينا، ويجيعه ويُتخمنا. ونحن إذا صفونا فصفونا هدنة ما بين ثورة وأخرى من ثورات الهمّ والقلق والكيد والتشفّي وكلّ أصناف الشهوات السود.

ونحن إذا بردنا فكما يبرد الحديد ما بين السندان والمطرقة فلا يلبث أن يعود إلى الكور. أمّا أنت يا ينابيع لبنان فجودك لا مَنّ فيه ولا حساب، ولا تفرقة أو تمييز. وصفاؤك صفاء الفكر المستنير. وبردك برد السلام المطمئنّ. فما أحراك بعطاش إذا شربوا منك شربوا الجود والنور والسلام.

* * *

عفوكِ يا نواقيس لبنان ويا مآذن لبنان!

ما طربَتْ أذني بأنغام كأنغامك، ولا اهتزّ قلبي لنداء كندائك، ولا ابتهجت روحي بشهادة كشهادتك ترفعينها في الغداة وفي العشيّ، في صخب النهار وفي هدأة الليل، إلى من تحجّب عن العين والأذن وهو في العين والأذن، وعن الفكر والفؤاد وهو محور الفكر ونبض الفؤاد؛ إلى البداية التي لن تنتهي، والنهاية التي لم تبتدئ؛ إلى علّة الوجود وضمير الحيّ القيّوم الرحيم الرحمن؛ إلى الأب الذي نحن أبناؤه وعلى صورته ومثاله، والذي يشرق شمسه على الأبرار والأشرار بالسواء.

عفوكِ يا نواقيس ويا مآذن تتجاوب بأنغامك وندائك وشهادتك الآفاق والسدم والنجوم. أمّا الذين من تحتك فلا يسمعون ولا يعون، ولو أنّهم سمعوا ووعوا لما كانت لهم السجون تعجّ بالجرائم والمجرمين، والمشانق تبكّتهم على مسمع من العالمين، والمحاكم تتصدّع من كثرة الدعاوى والمتداعين، والجيوش تأكل خبز الجياع وتلبس كساء العراة ولا عمل لها إلّا التأهبّ لصدّ الغزاة والفاتحين. ولا كانت مدارسهم متاجر، ومتاجرهم معاثر، وملاهيهم مواخير ومقابر، ومعابدهم مراخم تنقف فيها الضغائن والمشاكل.

لأنت جديرة بآذان غير آذاننا يا نواقيس ويا مآذن.

* * *

عفوكِ يا سماء لبنان!

عفوك عذراءَ سافرةً في النهار عن محيّا مشرق الأسارير، رائع الصفاء، وعين نارها بلسم وعافية، ونورها سلام وهداية. وعفوك عروسًا مجلوّة في الليل حلاها ثريّات ومجرّات وشهب

وأقمار. عفوك محجّبةً بحجب تنسجها الشمس من لهاث البحر. وعفوك ساكبةً على الأرض شآبيب الرحمة والمحبّة والحياة. فأنت محجَّبةً وسافرة، وضاحكةً وباكية، فتنةٌ وأيّة فتنة للقلب والفكر والخيال تسبح في رحابك وتستلهم أبعادك فتنسلخ عن ذاتها وعن الأرض وعن كلّ معقول ومحدود. ونحن الذين على مرأى منك نهرّم أيّامنا على موائد الملذّات والنكايات والسعايات فيهرّمنا الدهر على مواقد الأوجاع والآهات والحسرات؛ نحن الذين نتدفّأ بنارك، ونهتدي بأنوارك، ونستقي من أجفانك، ما تعلّمنا بعدُ كيف ندفأ لندفئ، وكيف نهتدي لنهدي، وكيف نستقي لنسقي. ولا تعلّمنا كيف ندور بعضنا على بعض كما تدور نجومك بعضها على بعض من غير أن نتصادم ونتطاحن ونتطاير هباء في الفضاء. فبأيّ حقّ ندعوك سماءنا يا سماء لبنان!

* * *

وأنت يا بحر لبنان!

أيّها الأزل الشادي والأبد المتهادي. يا حامل أوزارنا وأقذارنا، وباعث الحياة في جمادنا وأجسادنا. يا حنين الظلمات إلى النور، والنهايات إلى اللانهاية، والحدود إلى الانطلاق من الحدود. يا أمواجًا لا تنفكّ في كرّ وفرّ، من فوقها زبد تنثره الريح، ومن تحتها أعماق لا فرّ فيها ولا كرّ، ولا زبد ولا ريح. يا قطرات تآخت وتحابّت فتلاصقت وأصبحت قطرة واحدة هائلة بحجمها، ومداها مروّعة ببأسها وجبروتها.

أنت يا بحر لبنان تنادينا فلا نسمع، وتحدّثنا فلا نفقه، وتلقي علينا دروسًا في الالفة فلا نأتلف، وفي الحنين إلى الانعتاق من القيود فلا نحنّ لغير القيود. وأنت تحيينا فلا نجني من حياتنا إلّا الموت. لقد سُحِرنا بما فيك من موج وما في موجك من زبد. أمّا أعماقك الساكنة فما لمحنا جمال سكينتها ولا بالخيال.

لأنت حقيق بقوم لا يصمّهم عجيجك عن سكونك، ولا يعميهم زبد على وجهك عن لآلئ في قلبك.

* * *

إيه لبنان! لقد قيل في بنيك وبناتك – ولعلّهم هم القائلون – إنّهم قوم أذكياء. ألا بورك الذكاء! ولكن الذكاء وحده ما خَلق إلى اليوم رجالًا ونساءً صالحين وأقوياء. ولا كان يومًا مفتاحًا لباب الحبّ والجمال والحرّيّة. وما نَفْعُ الذكاء يسوقه المكر والجشع والغطرسة وحبّ المجد الباطل، ويقوده الرياء والخنوع والخوف والذلّ؟ ما نفعه يخلق المتاجر والمصانع والمعاهد، ويجوب الآفاق والأمصار، ويجلب الفلس والدينار، ويبقى، إلى ذلك، في نزاع مع نفسه ومع العالم، وعبدًا خسيسًا للمتاجر والمصانع والمعاهد، وللفلس والدينار؟ ثمّ ما نفعه يعتزّ بأنّ له صوتًا مسموعًا في مجالس

الأمم وهو لا يسمع أصوات بحرك وسمائك ورواسيك ونواقيسك ومآذنك يا لبنان؟ وكلّها يدعوه إلى النضال لا في سبيل المجد والمال، بل في سبيل الإنسان. وسبيل الإنسان هو الجهاد للوصول إلى قدس أقداس الحبّ والحرّيّة والجمال.

والحبّ والحرّيّة والجمال آيات خطّها الله بأحرف من نور على جبينك يا لبنان. أفلا من يقرأ؟ أفلا من يفهم أنّه من الحيف أن يستقلّ بك أناس همّهم الأكبر أن يجعلوك ريشة في مهبّ المطامع والأهواء وأن يقال فيهم أذكياء؟ وأنت بما أغدقته عليك يد الله السخيّة من فتنة وسلام حريّ بأن تكون مسكنًا للعباقرة والأنبياء.

عفوك، ثمّ عفوك، يا لبنان!

المذوَد والصليب

في كلّ قلب مذود وصليب.

وأنت يا قارئي – وسواء عندي أكنتَ من أشياع ابن مريم أم من أشياع سواه – تحمل في قلبك مذودًا وصليبًا.

وأنا إذ أكلّمك عن المذود والصليب لا أكلّمك بلسان المبشّر يدعوك لنبذ مذهب واعتناق مذهب. ففي قرارة نفسي إيمان تتزعزع الأرض ولا يتزعزع، ويبلى الزمان ولا يبلى، بأنّ سبل الخالق إلى الخليقة وسبل الخليقة إلى الخالق أكثر من أن يستوعبها عقل ويحصيها خيال. فهنيئًا لك بمذهبك ما دمت ترى فيه سبيلًا صالحًا وسويًّا إلى ربّك.

لكنّني إذا حدّثتك عن المذود فإنّما أحدّثك عن مهد الإله المتأنّس. وإذا ذكّرتك بالصليب فإنّما أذكّرك بعرش الإنسان المتألّه. وإنّما أدعوك إلى تفقّد قلبك. فأنت لو تفقّدته لوجدت في سويدائه مهدًا للإله المتأنّس فيك وعرشًا للإنسان العتيد أن يتألّه.

ما كانت ولادة المسيح في مغارة للبهائم سوى رمزٍ إلى بداية الإنسان الحيوانيّة. أمّا الطريق الذي قطعه المسيح من المهد إلى اللحد فهو الطريق الذي لا مناص لي ولك من قطعه إذا نحن شئنا أن نخلص من الحيوان فينا إلى الإنسان، ثمّ أن ننعتق من الإنسان لنتّحد بالله. والخلاص من الحيوان إلى الإنسان لا يتمّ إلّا بقهر الغرائز الحيوانيّة. والانعتاق من الإنسان لا يكون إلّا بنكران الذات الإنسانيّة المنفصلة عن ذات الله.

أما ترى أنّ حياة المسيح على الأرض كانت حربًا بغير هوادة على البهيمة في الإنسان؟ فمن طبيعة البهيمة أن تحيا لذاتها غافلةً عن كلّ حاجة غير حاجتها، وعن كلّ لذّة غير لذّتها، وعن كلّ هدف من وجودها غير الأكل والشرب والتناسل. أمّا المسيح فقد علّمنا بلسانه وحياته أنّ الإنسان – ليكون إنسانًا – لا يليق به أن يحيا حياة الحيوان. بل لا بدّ له من أن يحيا لغيره إذا هو شاء أن يحيا لنفسه. فيعمل لقريبه مثلما يعمل لذاته. لأنّه وقريبه جسد واحد وروح واحد، هما جسد الله وروحه.

فإن هو أبغض قريبه فكأنّه أبغض ذاته وأبغض ربّه: – «أحبّ قريبك كنفسك» – وإن هو دان قريبه بهفوة أو بزلّة فكأنّه دان نفسه ودان ربّه: – «لا تدينوا لئلّا تُدانوا». – وإن هو تمسّك بالأرض وملذّاتها فقد نسي «ملكوت السموات» والحياة الأبدية في الله: – «لا تهتمّوا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس.. اطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبِرّه، وهذا كلّه يُزاد لكم». وقد قال للغنيّ الذي جاء يستهديه طريق الخلاص: «اذهب وبعْ كلّ ما لك وفرّقه على الفقراء وتعالَ اتبعني».

ثمّ أمَا ترى أنّ المسيح بقطعه طريق الجلجلة إلى الصليب، وبارتفاعه على الصليب، وباقتباله الشتيمة والهزء والسخرية والألم من غير أن تصدر منه كلمة عتاب أو تبرّم أو شكوى، إنّما شاء أن يدلّك ويدلّني على الطريق المؤدّي من الذات الإنسانيّة المائتة، للحظوة بالذات الإلهيّة التي لا تموت؟

* * *

في كلّ قلب مذود وصليب: مذود الحيوان يغدو إنسانًا، وصليب الإنسان يغدو إلهًا. وبين الاثنين طريق طويل شائك ومليء بالفخاخ والمعاثر. وهو طريق لا مندوحة لأيّ إنسان من قطعه. فلا خير في مذود لا يُنبت صليبًا. ولا خير في صليب لا ينبت في مذود.

إنّ قلبي لعامر بمذوده وصليبه. أفليس قلبك مثل قلبي؟

وإنّ مذودي لمشرق بسناء الإله الهاجع فيه. وصليبي لمخضّب بدم الإنسان المعلّق عليه. وما في المذود إلّا أنا. ولا على الصليب إلّا أنا. ألست في مذودك وصليبك مثلي في مذودي وعلى صليبي؟

إلّا أنّني ما قلت بعد «أبتاه اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون». ولا تحوّل دمي ماءً، ولا أعلنَتْ شفتاي أنّ جهادي «قد تمّ». لكنّ الزمان طويل. ورحمة الله أبقى من الزمان وأطول. وصبري لا نفاد له. ألعلّ صبرك في نفاد؟

ومثلما لي ولك طريق نجتازه إلى صليبنا كذلك للإنسانيّة طريق تجتازه إلى صليبها. وها هي إنسانيّة اليوم تتخبّط في طريقها فلا تنهض إلّا لتعثر، ولا تنجو من فخّ إلّا لتسقط في آخر. فلا تيأسنّ يا أخي من خلاصها. فهي لمّا تبلغ الجلجلة بعدُ، ولمّا ترتفع بعدُ على صليبها.

ولا تقولنّ مثيل ما يقوله الحمقى والثرثارون إنّ يسوع الناصريّ وسواه ممّن دعوا إلى الانعتاق ما كانوا غير صرخة في وادٍ وأغنية في طاحون. وإنّ المذود ما كان غير معلف للبهائم، والصليب ما كان أكثر من خشبتين معترضتين. فما هو بالأمر اليسير أن يتغلّب الإنسان على الموت فيغدوَ إلهًا. ولو أنّ الألوهة كانت تُنال في خلال جيل أو أجيال، وببتر يدٍ أو خسارة عين لما كان أتفهها

وأبخسها من سلعة! لكنّ الوصول إلى الله يقضي بتضحية الحيوان للإنسان، ثمّ بتضحية الإنسان لله وبالانعتاق من سلطان الخير والشرّ وكلّ ما يولّدانه من متناقضات.

ولو أنّ المسيح أو غيره أعتقك من الموت من غير أن تموت، وأوصلك إلى الله من غير أن تقطع المسافة بقلبك الدامي وعينيك المقرّحتين لما كان من فضلٍ لك في خلاصك. إنّما عليك أن تشتري حرّيّتك بدمك.

أراضٍ أنت من حياتك بما تأكل وتشرب، وبما تجمع وتنفق، وبما تنسله طعامًا للموت؟ والبهائم، يا صاحبي، تأكل وتشرب وتجمع وتنفق، وتنسل طعامًا للموت ثمّ تمسي هي كذلك طعامًا للموت. أوَلَست بأفضل من البهيمة؟

أترضى من حياتك بالجهاد، ومن جهادك بالموت؟

إنّ الذي وُلد في مذود بيت لحم ما جاهد إلّا لينعتق من الجهاد، ولا مات إلّا ليقهر الموت. والصليب – صليبه – ما كان غير عبّارة له من ذاته المائتة إلى ذاته التي لا تموت. فهو رمزٌ لي ولك إلى الإنعتاق الذي سيتوَّج به جهادك وجهادي إن نحن أحسنّا الجهاد.

وإنّي لأتمثّل هذه الأرض مذودًا تدرج منه الإنسانيّة إنسانًا تلوَ إنسان إلى جلجلتها. وإنّي لأتخيّل المسكونة بأسرها تلك الجلجلة، وقد قام عليها صليب أعلاه في السماء وأسفله في الأرض، والله قد بسط من فوقه ذراعيه ليتقبّل كلّ عائد إليه من أبنائه مثلما تقبّل ذلك الوالدُ في الإنجيل ولده الضالّ من بعد أن اغترب عنه غربة طويلة بمداها وأوجاعها. وإنّي لأكاد أسمع الأب الكلّي يقول في كلّ ولدٍ فارقه جاهلًا وعاد إليه فاهمًا ما قاله ذلك الأب في ابنه:

«لقد كان ميتًا فعاش. وكان ضالًّا فوُجِد».

بذار السنين

(بين عامين)

علّمتني الأعوام – مُدْبرها ومُقبِلها – أنّ الزمان جديده أبدًا قديم وقديمه أبدًا جديد. فالدقائق لا تنسلخ عن الساعات، ولا الساعات عن الأيّام، ولا الأيّام عن الأعوام مثلما تنسلخ قشرة عن ساق شجرة أو وُريقة في روزنامة عن باقي الوريقات. بل إنّ يومًا نحسبه وراءنا يطلّ علينا في صباح كلّ يوم ويمضي يلاحقنا حتّى نهاية العمر، وحتّى نهاية الزمان. فما من سبيل إلى الهرب من دقيقة واحدة أو لمحة واحدة. ونهار نهرب منه عند النوم توقظنا في الصباح مشاغله ومشاكله، وغمومه وهمومه لنستعين عليها بنور نهار آخر. وهكذا نصل الفكر بالفكر، والنيّة بالنيّة، والأمل بالأمل، والنَّفَس بالنفس، والحركة بالحركة، واليقظة بالمنام، غير آبهين لرقّاص الساعة ولا للأرض في دورانها حول الشمس.

علّمتني الأعوام أن لا أبكي عهدًا مضى ولا أضحك لعهد يأتي. وأن لا أعُدّ خُطواتي على رمال الزمان. فلا أندم على صبا تحجّب وشباب تصرّم. ولا أجزع من كهولة تفضي إلى شيخوخة وشيخوخة تنتهي إلى رمس، ورمس إذا اتّسع لرفاتي لن يتّسع لكلّ ما فكّرت واشتهيت وقلت وعملت. والذي فكرته واشتهيته وقلته وعملته هو بذاري أودعته ذمّة الزمان. وأنا حريّ بأن استغلّه قبل أن يستغلّه سواي. وللزمان ذمّة لا تخون.

وعلّمتني الأعوام أنّ الحياة زرع دائم وحصاد دائم؛ وأنّ من يزرع القطرب لا يحصد القمح، ومن يغرس العوسج لا يجني العنب. أمّا الزمان فلا يزرع ولا يغرس، ولا يحصد ولا يجني، ولا هو يحمل البذار والغرس. ولكنّه شاهد لا أكثر. وأمّا البذار فمنّا وفينا. وكذلك الغرس منّا وفينا. وأمّا الزارعون والغارسون، والحاصدون والجانون فنحن. والزمان براء من كلّ ما نعمل أو لا نعمل.

وإذن فنحن إمّا ماجنون أو مدجّلون أو مخبولون كلّما شكونا على الزمان جوره أو رجونا منه عدله، وكلّما ودّعنا عامًا لنستقبل آخر بالهرج والمرج، وبالكؤوس تقرع الكؤوس، وبالهتافات العالية: «عامًا سعيدًا!» إذ ليس عليك أن تكون نبيًّا لتعرف إذا كان العام الجديد سيكون سعيدًا أو غير سعيد. بل كلّ ما تحتاج إليه لتعرف وجه العام المقبل كيف يكون هو أن تعرف قَذَال العام المدبر كيف كان. فَقَذال العام القديم هو وجه العام الجديد. ومن ثمّ عليك أن تفتّش عن البذار الذي ألقاه النّاس في عامهم المنصرم لتعرف ماذا سيحصدون في عامهم الآتي.

وماذا عساني أقول في الإنسانيّة الواقفة الآن على عتبة عامها الجديد وفي البذار الذي أودعته ذمّة عامها القديم؟

إنّها لإنسانيّة عجيبة حقًّا وغريبة. وأعجب ما فيها أنّها قد أتقنت فنّ زراعة الحبّة وغرس النبتة في التراب. أمّا فنّ زراعة المحبّة في القلب وغرس الأخوّة في الروح فما تزال تجهله كلّه. أو هي لا تجهله ولكنّها تتجاهله. ثمّ تعجب لحياتها كيف لا يسودها الوئام وكيف تمزّقها الأحقاد والضغائن.

إنّي لأعتزّ بالإنسانيّة تتوصّل بذكائها إلى حدّ أن تكاد تتحكّم في التراب وما ينبته التراب من بذور وأشجار. فهنالك علماء دأبهم تأصيل البذور والأشجار بغية انتقاء الأنشط والأجود والأصلح منها. وعلماء شغلهم درس التربة وتنقيتها وتحسين أساليب حراثتها، وتموينها بما ينقصها من المواد الضروريّة لخصبها وانتقاء الأنسب لها من البذور.

وأعتزّ بالإنسانيّة تتجنّح أرجلها، وتُرهَف مسامعها، وتنجلي أبصارها إلى حدّ أن تركب الماء والهواء وتسمع في المشرق ما يقوله المغرب، وتبصر ما تحجّب في أعماق اللجّة وما غاب في كبد الجلد.

ولكنّني أخجل حتّى الانسحاق بتلك الإنسانيّة عينها تهذي ليلها ونهارها بالسلم وبالحرّيّة وبالإخاء وبالانعتاق من الفقر والخوف والوجع، وهي تعمل نهارها وليلها على بذر الحرب والعبوديّة والشقاق والفقر والخوف والوجع في قلوب بنيها. فكأنّها ما تعلّمت بعدُ أنّ بذار القلوب حريّ بالعناية والتأصيل والغربلة كبذار الحبوب سواء بسواء. وأنّ تربة القلوب جديرة بالحراثة الفنّيّة وبالتمهيد والتنقية، وبالريّ والتغذية كتراب الأرض سواء بسواء.

لو أنّ البشريّة تعلّمت كيف تُعنى بقلوبها وأفكارها عنايتها بحقولها وبساتينها لكان في مستطاعها أن تقول: إنّي أريد السلم والعدل والحرّيّة – فيكون لها السلم والعدل والحرّيّة. وأريد صفو البال لأحلّ ما أُغلق عليّ من أسرار الكون – فيكون لها صفو البال وتحلّ ما أُغلق عليها من أسرار الكون. لأنّها إذ ذاك لا تبذر في قلوبها وأفكارها غير البذار الذي من شأنه أن ينبت لها السلم والعدل والحرّيّة وصفو البال. ولكنّها تبذر الحرب والعسف والعبوديّة والذعر في كلّ ما تبذر ثمّ

ترجو أن تحصد عكس ما تبذر. إنّها لترجو أن تجني الشهد من الحنظل، والتين من العوسج، وأن تحصد من القطرب قمحًا. وذلك هو منتهَى العجب، بل منتهَى الجنون.

أنجعل من الأرض مسلخًا ثمّ نقول لأبناء الأرض: غنّوا وارقصوا، واسرحوا وامرحوا فأنتم في أمان؟

أنحوّل الفضاء أتّون فناء ثمّ نتنادى: تعالوا نعش في سلام؟

أنبذر أرحام السنين بالأحقاد والأوجاع ثمّ نهنئ بعضنا بعضًا في مطلع كلّ عام: كلّ عام وأنتم بخير؟

يا ليت مَن في أيديهم هندسة الحياة البشريّة ينصرفون إلى تنقية قلوب الناس وأفكارهم ثمّ إلى اختيار البذار الصالح لها مثلما ينصرف المهندسون الزراعيّون إلى تنقية الأرض وتسميدها واختيار البذور والأغراس الصالحة لها.

يا ليتهم يزرعون البحار سفنًا مشحونة بهدايا الناس للناس بدلًا من أن يزرعوها مدمّرات وغوّاصات تحمل الذعر والويل للناس.

يا ليتهم يزرعون الجوّ أجنحة ترفرف بالوئام والسلام بدلًا من أن يزرعوه قلاعًا طائرة وصواريخ تقذف الأرض بالموت الزؤام.

يا ليتهم يبذرون الأثير تحيّات وتمنّيات وصلوات وبركات بدلًا من أن يبذروه شتائم ونمائم، وتجاديف ولعنات.

ثمّ يا ليتهم يصونون مطابعهم ومدارسهم ومعابدهم ودور ملاهيهم عن الأراجيف والسخافات والنكايات والترّهات لعلّهم يجنون منها غير ما يجنونه اليوم من قلق وتوتّر أعصاب، ومن صداع ونزاع، ومن هذيان وغثيان.

لقد أتقن الناس فنّ حراثة الأرض وزرعها. أمّا النفس البشريّة التي هي أفسح من الأرض وأثمن من جميع معادنها وغلالها وأبقى من كلّ بحارها وجبالها بما لا يقاس، فما وجد الناس بعد المحاريث الصالحة لتربتها والبذار اللائق بخصبها. ولكنّ يدًا غير أيدي الناس تعمل بغير انقطاع في تربة النفس البشريّة. لذلك ما أقفرت الأرض يومًا من الصلاح والصالحين على كثرة الطلاح والطالحين. وهذا الصلاح وأولئك الصالحون هم أمل الناس من الخلاص وهم البذار الذي لا بدّ للإنسانيّة من أن تهتدي إليه يومًا من الأيّام، فتتعهّده بكلّ ما فيها من عبقريّة وشوق إلى الحرّيّة، وتنقّيه من الأحساك والتراب والزؤان، ثمّ تلقيه في تربة القلب والفكر. وعندئذ إذا قال قائل في مطلع أيّ عام: عامًا سعيدًا أيّها الناس! ردّدت الأرض قوله بألف ألف شفة وألف ألف لسان: حقًّا إنّه لعام سعيد أيّها الناس!